الماتريوشكا

الماتريوشكا (قصص)

سوار الصبيحي (كاتبة أردنية)

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)
alaan. publish@gmail. com،
alaanpublishers. com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-476-4

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(782/ 2/ 2022)

813.9

الصبيحي، سوار محمد

الماتريوشكا / سوار محمد الصبيحي. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(136) ص

ر. إ: 782/ 2/ 2022

الواصفات: القصص العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

سوار الصبيحي

الماتريوشكا

يكمن دور الكاتب والفنان في طرح الأسئلة، وليس في الإجابة عنها

أنطون تشيخوف

قصص تتجاوز «البدايات الأولى»

إلياس فركوح

غالبًا ما تتسم الكتابات الأدبية السردية من قصص قصيرة وروايات على وجه الخصوص، وشعر كذلك، في بداياتها الأولى، بملامح آخرين أصحاب تجارب مؤثرة، وقد تركوا «أصواتهم» ترنّ بين سطورها، بمعنى: أساليبهم، ولغاتهم، ومنظورهم للعالم، والمناخات/ الموضوعات المطروقة، والاقتراب الخطير من شخصيات نصوصهم... إلخ! وهذا، بحسبي، أمرٌ مفهوم لأنه من طبيعة حالات التأثير والتأثر والتفاعل من زاوية الإعجاب المبالغ به، أو حتّى «الانبهار»، كحالة اقتداء متطرفة، ومحاذاة لـ«النماذج» التي باتت بمثابة المقياس والمعيار والدرس النهائي!

غير أنّ تلك البدايات ليست سواء في مسألة «عدم الاستقلالية» هذه؛ فثمّة تفاوتات نسبية بين نصوص ونصوص وفقًا للتفاوت المنطقي بين أصحابها وصاحباتها. تفاوتات في المرجعيات الثقافية، والإسنادات الأدبية على صعيد الاختيارات، وخصوصيات أنماط العيش، وطبيعة المجتمعات التي لها كلّ التأثير بحسب ما يتوفر لديها من تجارب كتابية سابقة وقد تراكمت، لتتحوّل إلى «ميراث» يُبْنى عليه. وإنها تفاوتات يمكن ملاحظتها عبر قراءات ذات دربة نقدية، واطلاع واسع على الجنس الكتابي وتحولاته عبر تاريخه الأدبي.

وبالتالي، لستُ هنا بصدد إصدار أحكامٍ قطعيّة على/ وشاملة لجميع ما أشرتُ إليها بـ«الكتابات في بداياتها الأولى»؛ إذ في أحيانٍ ليست كثيرة، يحسن طالعُكَ بقراءة كتابة في بدايتها، ومنذ نصّها الأوّل، تتريّث لتعاود القراءة بانتباهٍ أشدّ؛ لأنَّ «تماسكًا ما» باغتكَ في كتابٍ أوّل لاسمٍ تجهله، وتخرج بعد تلك القراءة الثانية بالنتيجة نفسها: هذه كتابة ناضجة! كتابة لم تستخرجها حالات الانبهار المؤدية إلى التقليد، فالنسخ، فمسخ الشخصية الكاتبة! كتابة امتلكَت «شخصيتها» باستقلالٍ بائن! كتابة أظهرَت احترامها لتاريخ الكتابة (لغةً، وصوغًا، وبيانًا)، كما احترامها للجنس الكتابي الذي استهدفَته، والأهمّ: احترامها لكلِّ قارئٍ لها، ما يؤدي بالضرورة، لا حترام مَن يقف/ تقف وراءها.

كان هذا ما جالَ في خاطري بينما أنتقل من قصة قصيرة لأخرى في المجموعة الموسومة بـ«الماتريوشكا»، لسوار الصبيحي، الاسم الذي عرفته لأوّل مرّة عند رؤيتي له على غلاف الكتاب. وإني، عند انتهائي من قراءته كاملًا، مانحًا له ولنفسي الوقتَ الكافي من غير تعَجّل، انتبهتُ إلى أنّ اختيار كاتبته الأردنية للعنوان، الذي هو عنوان إحدى قصصها، لم يكن اختيارًا اعتباطيًّا البتة. كما لم يكن بدافع إثارة الانتباه لاسمٍ غريب (أجنبي) يثير التساؤلات؛ بل هو اختيارٌ واعٍ لفنّ القصة المتوالدة من أُخرى تشكّلُ نقيضًا لها أحيانًا، أو مكملًا، أو مشاكسًا، أو مجادلًا، أو شاهدًا عليها ولها! هكذا كانت القصص التسع عشرة الموزعة داخل الكتاب، تتوالد من بعضها كاشفةً عن عوالم وشخصيات تتعارض في

طموحاتها، وتختلف في رؤاها، وتتباين في تركيب شخصياتها؛ إناثًا وذكورًا، بعضها يقبع أسيرًا للماضي يتغذّى عليه، بالمقابل من بعضٍ يتوق للمستقبل من غير وَجَل كأنه يريد أن يولد من جديد. بعضٌ يخلقُ لنفسه «حياةً» مما يحلم به، وبعضٌ يتحايل على «حياته» بتزييفها من خلال التلاعب بـ«صورته»!

فـ«الماتريوشكا»، لمن لا يعرف، دمية روسيّة مجوفة تحتوي في داخلها دُمىً أصغر فأصغر تشبهها، أو تختلف عنها في تفصيل هنا أو هناك! ولأنها كذلك؛ فإنها قادرة على تحفيزنا لأن نذهب بعيدًا في «تأويلاتنا»، ليس للقصص فقط، بل أيضًا لذواتنا نحن الأفراد، كما جاءت بها تلك القصة: ذاتٌ متعددة، متشكلة من ذوات أخرى مختلفة تمامًا. وإنها واحدة من الالتقاطات الذكية الدالّة على «عُمْق» الكاتبة؛ إذ رأت أننا نتضمن في أعماقنا مجموعة تناقضات تتجلّى صارخةً، أو حاثّةً، أو خائنةً، بحسب المواقف التي نتعرض لها! كأنها تشير إلى أنّ أكثر ما نفتقده في حياتنا اليومية هو التوازن!

لسنا متوازنين غالبًا، حمقى على نحوٍ ما، نتوهم الحكمة ونعرضها على غيرنا بوصفها «الحقيقة»، لنجدَ غيرنا يملكُ «حقيقته» المقابلة الداحضة. نعيش أيامنا على نحوٍ تناسخي، ثم نلتقي بمن يوقظنا. على أننا إنما نبهتُ مع الوقت. باختصار: للحياة ظواهرها، ولذواتنا بواطنها المخاتلة!

إنّ الوعي الفني السابق للكتابة جديرٌ بأن يشكّلَ الهادي لسيرورة الكتابة القادمة وصيرورتها في الوقت نفسه، وهذا ما يُقْرأ صريحًا معلَنًا في كلمة الغلاف التي أرادت سوار الصبيحي تثبيتها، لتشهد على قصصها.. وعليها:

*«يُطلَب من القارئ عادةً عدم الاكتفاء بقراءة السطور، والتعمق في استنباط ما بينها. إلّا أني أطلبُ شيئًا مختلفًا.. **هل تستطيع قراءة ما بعد السطر الأخير؟** (التشديد هنا من عندي).*

إنْ أجبتَ بـ(نعم) فإنَّ هذا الكتاب قد كُتب لك. وإنْ أجبتَ بـ(لا)، فلا بُدّ أن تعطي مخيلتكَ فرصةَ نقلك -عبر قراءته- من موقع المتلقي إلى المشاركة في الحدث.

تضم المجموعة قصصًا توصف بالقصيرة، إلّا أنَّ لها بدايات بعيدة، وأحداثًا متراكمة أقف فيها عند نقطة ما، تاركةً مهمة التأويل لك».

هل يكفي هذا تحفيزًا لقراءة قصص هذه الكتابة المتجاوزة لـ«البدايات الأولى»؟

من جهتي، فرحتُ بهذه الكتابة وبكاتبتها؛ إذ أضافت للقصة في الأردن صوتًا جديدًا لا تشوبه «نواقص» البدايات؛ صوتًا رائقًا صافيًا.. وواثقًا.

❋❋❋

خطوة عزيزة

كان يوم سبت، وبالتحديد الساعة الرابعة عصرًا..

ككل سبت في الساعة نفسها، تركض الفتيات والنساء والصِبية باتجاه البوابة الحديدية. أمّا رجال الحي فيكتمون انفراجة أساريرهم في هذا الموعد، فلم يكن هنالك أيّ داعٍ أو مبرر ليُظهروا سعادتهم على العلن بما لا شأن لهم به..

قدوم عزيزة بائعة الأساور.

لكن قدومها كان دائمًا أشبه بمهرجان صغير تُطل فيه النساء من الشرفات، وتُسلّم الجارة على جارتها التي غابت عنها أيامًا، وتتعالى الأصوات والضحكات في حي الريشة رغم رتابته ونمطية ساكنيه. رُوي لنا أنه سُمي بهذا الاسم لأنه كان يشبه بهدوئه سقوط الريشة.. وما زال، إلّا حين تدخله عزيزة، فيستحيل الحي بأكمله من ريشة إلى ديك لا يفتر عن الصياح والوثب بعشوائية.

كانت تأتي في الموعد نفسه كل أسبوع لدرجة أن أطفال الحي باتوا يميزون أنها الرابعة تمامًا حين يتناهى إلى سمعهم صوت دندنةٍ قادمة من بعيد، فيُهرع الجميع إلى الترحيب بها والتفرج على بضاعتها الجديدة من الأساور والقلائد، ويحوم الصغار حول أمهاتهم يرقصون على وقع خشخشاتها.

كنت أنزعج من قدومها وأتحاشى رؤيتها، بل أنفر من مظهرها وهي تختال بثوبها المفرط في الزركشة، ووجها المتهدّل بالأصباغ المبتذلة التي لا تليق بامرأة في سنها، وتستفزني تلك الشامة الناتئة التي تستقر فوق أرنبة أنفها، بالإضافة إلى ضحكتها التي تتعالى تدريجيًّا وتنتهي ببحة طويلة ترغمني على حكّ أذني كلما سمعتها. أما الأساور المعدنية التي تتكدس خلف بعضها بعضًا وتلف معصميها فتُفسد عليّ قيلولتي بضجيجها المتواصل.

آه، وكأن هذا كله لا يكفيني، تتبختر عزيزة في أروقة الحي وهي تدندن بأغانٍ لم أسمعها في حياتي، تقول إحداها في مطلعها: «أم ضحكة جنان.. غوايشك فرح، وخطوتك أمان».

كنت أعتبرها شِدّة ولن تزول، فالأساور الرديئة التي تأتي بها من سوق المدينة وتبيعها عندنا ليست السبب الوحيد الذي يجعل النساء والفتيات يتعلّقن بها ويتجمهرن حولها حين تفتح حقيبتها الكبيرة وتفرد بضاعتها على العلن، فقد كانت امرأةً ذكيةً -والحق يقال- تتقن فن التسويق واستقطاب الزبونات اللاتي ينتظرنها بلهفة، ويفرحن يوم قدومها أشد الفرح، فلا يمارسن طقوس النكد على أزواجهن، ما يجعل الأزواج بدورهم يستبشرون خيرًا بقدوم عزيزة. سمعتها مرات عديدة تقرأ الكف للصبايا والنسوة بشكل خاطف وهي تضع الأساور في أيديهن، ولا تنسى بالطبع أن تبشر ابنة الحدّاد بخير كثير في طريقه إليها -شرطَ الإيمان بذلك- على حد زعمها. كانت تعيد القراءة نفسها على مسامعها كل

أسبوع، وقد تُضيف عليها شيئًا بسيطًا كأن الفتاة تحتاج لمن يسقيها الأمل باستمرار ويؤكد عليه، وتلف بعدها سوارًا حول يد زوجة صاحب المقهى الذي تفرد بضاعتها عنده، ثم تناديه ليلقي نظرةً على يدها التي ازدادت به جمالًا، فترى الزوجة تضحك استحياءً كعروس حديثة العهد بالزواج.

أما ذاك السبت بالتحديد فقد تخطّت الساعةُ الخامسةَ والهدوء ما زال يهيمن على الحي، إلى أن بدأت همهمات ووشوشات تسري هنا وهناك، وتعالت الأصوات شيئًا فشيئًا، وكل منها يحمل تكهنًا وتنبؤًا أغرب من الذي سبقه.

من أهل الحي من خطر بباله أن عزيزة قد ماتت إثر فيروس انتشر في المدينة التي تقطنها؛ إذ لا شيء يمكن أن يحول بينها وبين القدوم كعادتها، وبدقتها المعهودة، إلا الموت. ومنهم من مال إلى رأي آخر؛ تعرضها للخطف من قبل قطاع الطرق وسرقة حقيبتها.

كما راحت إحداهن تستعيذ بالله وتدعو لها بالسلامة من «أولئك».. ولما سُئلت من يكون أولئك استعاذت بالله مرة أخرى، واكتفت بوصفهم بأنهم الذين يساعدونها في قراءة الكف والطالع.

أخرستهم أخرى وهي ترجّح احتمالية هروبها مع رجل كان يحبها، فزوج عزيزة كان يسيء معاملتها كما يعرف معظمهم.

بينما انتبذت مجموعة من الصبايا زاويةً تهامسن فيها حول شيء أكثر غموضًا لا نعرفه.

ظلّت أفظع وأغرب الإشاعات حول غياب عزيزة تدور وتدور اليوم

كله بلا قرار، كيف لا وعندنا من يؤلّف الحكاية، ومن يبهّرها ويضفي عليها عنصر التشويق الذي يغيب عن حياته شخصيًّا، ومن ينقلها كحقيقة غير قابلة للطعن، فتنتهي كل رواية بحجم يفوق حجمها الحقيقي بأضعاف؟!

عاد أهالي الحي مع حلول الظلام بعد كل ما قيل إلى منازلهم كحمر مستنفرة، البعض يضرب كفًّا بكفٍّ ويلعنها في سره، والبعض الآخر رحل فزِعًا بصمت.

مر الأسبوع الأسود، وفي معظم لياليه كنت ألمح من نافذتي ابنة الحداد تقف على الشرفة القريبة وتنظر باتجاه البوابة الحديدية. كانت ملامحها عصية على التفسير، شاحبة الوجه فاقدةً كل أمل ببشائر خير في الطريق إليها. أما زوجة صاحب المقهى فلم أذكر أني رأيتها بعدها تكشف عن طيف ابتسامة.

سبتًا وراء سبت أصبح أمرُ عزيزة صفحةً مطوية، والريشةُ أكثر وحشةً من أيّ وقت مضى، وأذني لم تعد تحكني. لم أكن متأكدًا من السبب الحقيقي لغيابها، لكني تأكدت من أمور أخرى؛ أن لعزيزة الحق في الضحك كما تشاء، ولبس الثياب التي تشبه زينة الكرنفالات، وأن الأصباغ ذات الألوان الصاخبة التي كانت تملأ وجهها تظل أجمل بكثير من وجوهنا المتبرّمة..

والأكيد، أن «غوايشها فرح.. وخطوتها أمان».

المُنبّه

يرن جرس المنبّه، يفتح عينيه دون تثاقل، وبلا نية لإيقافه.

إنّه من القِلّة القليلة في هذا العالم التي تترك المنبّه يواصل رنينه دونما انزعاج، بل إنه والمنبّه في حالة وئام، فهو أكثر من يكترث لأمره، ولترقيته الجديدة المُنتظرة إن واظب على نشاطه وتفانيه المعتادَين في العمل.

يمدّ يده ببطء، يتحسس المنضدة المجاورة لسريره، يلتقط نظارته الطبيّة ويرتديها على الفور.

يبدأ نهاره بالطقوس الروتينية المعتادة له ولغيره من الموظّفين؛ بدءًا بالاغتسال، وتحضير القهوة، وارتداء البزّة الرسميّة... إلخ، وفي بعض الأحيان يتخلّلها ترتيب الفراش، غير أن هنالك عادات أخرى لا يألفها، ولا ينوي ذلك، فهو لا يفتح ستائر المنزل أو الغرفة على الأقل، ولا يقرأ الصحف، ولا يُقلّب هاتفه المحمول فور استيقاظه مُتفحّصا الرسائل والإشعارات، لا يشغّل المذياع ولا التلفاز، ولا يجلس على مائدة إفطار، فهو يرى أنّ عادات كهذه تقتصر على ربات البيوت والمتقاعدين، وأنّ موظفًا نشيطًا مثلَه ودقيقا في مواعيده دقة عقارب الساعة بغنى عن تلك المماطلات.

ينتشل ملّفاتهِ بحركة سريعة ويضعها في حقيبة العمل، ثم يخرج من منزله قبل تمام السابعة. يركب سيارته بنيّة الانطلاق، يحاول تشغيلها، إلا أنها لا تتجاوب معه.

يضرب «التابلو» بكفّيه بكل ما أوتي من قوّة وغضب، ثم يزمّ شفتيه وهو يفكر في ضرورة أن يكون عمليًّا أكثر، وصبورًا أكثر وأكثر؛ لأنّ موظفًا نشيطًا مثله ودقيقًا في مواعيده دقة عقارب الساعة لا بد أن يكون براجماتيًّا ومستعدًا لمجابهة أيّ منغصات صباحية قد تعترض طريقه. يناظر ساعة يده، ويقرّر أن انتظار حافلة ما أو سيارة أجرة أنسب حل.

ظل ينتظر مطوّلًا، ولم تمرّ أيٌّ منها، مشى مسافةً أبعد قليلًا علّه يلمح إحداها.. طال مشيه وصولًا إلى الشارع الرئيسي، وهناك أوقف أخيرًا سيارة أجرة.

فكّر في قرارة نفسه بأنه لم يتأخر كثيرًا، وأن متسعًا من الوقت سيكون أمامه لو حصلت معجزة فانفكّت أزمة السير الصباحية بسرعة وسلاسة انصياعًا لمؤامرة كونية لصالحه، لإنقاذ الموعد القياسي في الوصول إلى مكان عمله.. الموعد الذي لم يُخِلَّ به يومًا.

كانت الطرقات أمامه سالكة، سالكة جدًّا. وها هو يصل أخيرًا.

«أوه! قبل موظف الأمن حتى!».

تمتم في نفسه قائلًا وهو يشتهي الرقص علانيةً؛ فرحًا وفخرًا بهذا الإنجاز العظيم.

وبينما كان يهمّ بعبور الشارع متّجهًا إلى مبنى المؤسسة، لمح زميله الذي يسكن في شقة طابقية مقابل المبنى يجلس في شرفة منزله يتثاءب ويتمطى، وبجواره طفلة تدور وتراقب طرف فستانها الذي يرتفع ويدور معها.

تمسمر في منتصف الشارع مصدومًا، لينهال عليه وابل من أبواق السيارات، وشتائم من كل حدب وصوب تندفع من أفواه السائقين، كانت أعلاها وأقواها دويًّا في أذنيه: «غبي، أعمى!».

عاد مسرعًا إلى الرصيف وهو يتصبّب عرقًا وقلبه ينبض بتسارع، ليس خوفًا من التعرض للدهس بل خوفًا من أن يتنبّه زميله لوجوده، إن كان ما يفكر به صحيحًا.

أخرج هاتفه من جيبه، تفحص الرسائل.. ثم أغلقه سريعًا.

غطى وجهه بحقيبة العمل وركض باتجاه معاكس، كمن يستتر من جريمة ارتكبها.

فكّر قليلًا في كلمتيّ «غبي وأعمى»، ووجد أنهما لا تزعجانه بتاتًا، وأن الشيء الوحيد الذي يزعجه الآن هو الوحدة، بل إن هاتين الكلمتين كانتا أكثر ما يستحقه لهذا اليوم، فكيف لم يستوقفه ولو قليلًا أيٌّ مما حدث هذا الصباح؟ سيارته المعطَّلة التي منحته فرصة التوقف قليلا، واختفاء حافلات الصباح، والطرق السالكة.. السالكة جدًّا! كلها مؤامرات كونية لصالحه فعلًا. وقف ونظر مجددًا بخفية ومن وراء الحقيبة إلى الزميل الذي ما زال يتثاءب، ويمرر أرغفة الخبز لأطفاله.

شعر بالخذلان وبالرغبة في أن يكون مكانه لأسباب عديدة، منها استحالة أن ينسى زميله هذا، في أسوأ السيناريوهات المفترضة، أنّ اليوم عيد..

إن حقيقة كهذه قد تغيب فقط عن ذهن موظف متفانٍ ونشيط مثله ودقيق في مواعيده دقة عقارب الساعة.. عن ذهن رجل لا يحفل به إلا المنبّه.

المذنب

تمترست الطفلة ذات الأعوام الستة أمام شاشة التلفاز تشاهد حلقة جديدة من برنامج الكاميرا الخفية، وفور أن انتهت الحلقة خرجت إلى باحة المنزل في مهمة البحث عن صرصار بين الشجيرات الصغيرة علها تطبّق مقلب الشوكولاتة، إذ يفترض، بحسب ما جاء في البرنامج، أن تضعه داخل علبة شوكولاتة فارغة، وتقدّمها لأول ضحية تقابلها في المدرسة.

بعد نصف ساعة من البحث الجاد، وجدت صرصارًا مخيفًا بالقدر الكافي، وتمكنت من استدراجه ببراعة لدخول العلبة دون لمسه.

أحكمت إغلاق العلبة ووضعتها في حقيبتها المدرسية، ثم خلدت إلى فراشها وهي لا تفكر بشيء سوى رد فعل الضحية، وتضحك في سرها.

في صباح اليوم التالي، وأثناء صعودها الدرج المؤدي إلى غرفة الصف مُتسلّلةً قبل الجميع استعدادًا للمقلب، قابلت مُعلّمتها الأحب إليها وهي تهمّ بالنزول، فقرّرت أن تمازحها وبادرت بتقديم الشوكولاتة المزعومة لها وعيناها تبرقان بخباثة وسعادة، وفور أن لامست أصابع المعلّمة جسم الصرصار حتى انتفضت اشمئزازًا وخوفا مُطلقةً صرخةً عاليةً، ثم هرعت مبتعدة، فاصطدمت بعاملة النظافة أم سعيد التي كانت تجفف الدرج قبل صعود الطلبة إلى صفوفهم، فارتطمت أم سعيد هي الأخرى، بعد أن مال

جسد المعلمة عليها بثقله، بدلو الماء والصابون الذي استخدمته لغايات التنظيف، فانسكبت المياه من حافة الدرج نحو الأرض.

لم تمر دقيقة كاملة حتى دوَّت في الأرجاء صرخة مريبة، فاتضح أن مصدرها مديرة المدرسة التي انزلقت وهي تتجه نحو الدرج مرتديةً حذاءً بكعب عالٍ غير متنبهة لوجود صابون على الأرض، الأمر الذي أضحك صغار الطلبة بطريقة زادت من حرجها وارتباكها.

ولمّا لم تستطع الحراك وقد تعالى صراخها وتواصلت أناتها نُقلت فورًا إلى أقرب مشفى، فتبين وجود إصابة بليغة في مفصل الركبة، ورضوض في منطقتي الحوض وأسفل الساق، ما جعلها تستشيط ألمًا وغضبًا، وتقرر في لحظة اهتياج إصدار أمر بإيقاف عاملة النظافة أم سعيد عن العمل تمامًا ودون أجر لحين البحث في العقاب الأنسب لإهمالها هذا.

حاولت أم سعيد بشتى الطرق إقناع المديرةِ بالعدول عن قرارها، إلا أن الأخيرة رفضت تمامًا، فلجأت أم سعيد بعد مدة لمديرية المنطقة ومسؤولها الذي لم يبد اهتمامًا حقيقيًّا بالأمر، واعتبره خارج نطاقِ مسؤولياته.

وبعد قيامها باستشارة عدة معلمات كن قد شعرن بالأسف تجاهها، تم الإجماع على رفع تقرير إلى وزارة العمل لعل ذلك يعود بنفع، إلا أن تقريرها لم يأت بنتيجة إيجابية ولا حتى سلبية، والله وحده يعلم أين استقر ذاك التقرير الذي ظلَّ حبيس ملف يعتلي مكتب موظف بائس منشغل

بالتفكير في أمور عائلية ومادية أكثر أهمية وأولوية من تقارير قد ينتظر أصحابها قليلًا..

ترددت أم سعيد يومًا بعد يوم إلى قسم الشكاوى في الوزارة بهدف تتبع حالة التقرير ومساره، وتحسب في كل مرة إذا كانت القروش التي ستنفقها في المواصلات كافية، إلّا أن أحدًا لم يعطها فرصة الشكوى أو حتى السؤال.

لم تترك أحدًا تعرفه إلا حكت له مصيبَتها، حتى جارتها قليلة الحيلة مثلها، إلا أن ابنة الجارة التي تدرس في الجامعة نصحتها بأن تجعل من قصتها قضية اجتماعية بمشاركتها على مختلف المواقع وصفحات الإنترنت، ووعدتها أن تساعدها في ذلك.

أخذت بنصيحتها ونجح الأمر، إذ بعد أيام معدودة من نشرها لاقت قصتها اهتمامًا بالغًا وتعاطفًا شديدًا من قبل المئات من رواد مواقع التواصل الاجتماعي، وخلال أسبوع واحد، أصبحت الأكثر رواجًا وتداولًا على تلك الصفحات، وفي المنازل والمقاهي، إلى أن تمت استضافتها في برنامج يبحث القضايا الاجتماعية على محطة تلفاز محليّة، وحين ذكرت وهي على الهواء مباشرة تفاصيل حكايتها وما حدث معها في وزارة العمل انهالت الاتصالات والرسائل من قِبل مسؤولين استغلوا الموقف لتلميع صورتهم على العلن بتقديم مساعدات عظيمة لها، إلا أن أم سعيد ظلت مصممة على المطالبة بحقها بوصفها عاملة في المدرسة لا أكثر.

هزت حلقة البرنامج وجدان الكثيرين من أفراد الشعب الذين رأوا في قصتها أبعادًا أعمق وأوسع، وهمًّا يوحدهم على اختلاف الحكايات، فجعلت دماءهم تغلي في عروقهم كالمرجل، ورفعت عن صدورهم صمتًا جثم عليها لأعوام طويلة، فخرجت جماعات منهم تندد بطريقة سلمية بالظلم الواقع على العمال مهضومي الحقوق في مختلف القطاعات، والقضايا المهملة على نحو متواصل.

بعد أيام قليلة، عبَّر وزير العمل في لقاء صحفي معه عن اهتمامه الشخصي بقضايا كهذه، نافيًا تمامًا إهمال الوزارة لها بأي شكل من الأشكال، مُعزيًا السبب وراء الاتهام الباطل -على حد وصفه- لانشغال موظفي الوزارة ورؤساء أقسامها بنهج إصلاحي رجعي الأثر، وبقضايا ناتجة عن تراكمات الوزارات السابقة، وأمور أكثر تعقيدًا وخفيةً بحاجة إلى إصلاحات جذرية وعاجلة، وقدم عهودًا ووعودًا بغدٍ أفضل في ما يخص التحديات والإشكاليات التي تواجها شريحة العمال عامةً.

إلا أن المظاهرات لم تتوقف، بل امتدت واتسعت حلقاتها لتشمل المواطنين نساءً ورجالًا، كبارًا وصغارًا، عاملين ومتقاعدين، واصفين وعود الوزارة بالزائفة والمخدّرة لآلامهم.

تنبهت قيادة عليا إلى البلبلة الكبيرة والفوضى العارمة الحاصلة في الشوارع، وعلى شاشات التلفاز والمحطات الإذاعية، فأمرت إثر ذلك كله وزير العمل بالتنحي وتقديم استقالته لاستبداله بمن هو أقدر على ضبط الأوضاع ومعالجتها.

وبكل طواعية، قدم الوزير استقالته مرفقًا إياها برسالة خاصة جاء فيها:

«أما بعد الاستقالة، فإني أود أن أحيط سيادتكم علمًا بأن الأمر لم يكن بيدي شخصيًّا، وكما علمت مصادر خاصة أوكلنا أليها مهمة التحقيق في الأحداث الأخيرة، فإن شرارة الفوضى الأولى اندلعت من مديرة مدرسة (....) الدولية التي أصدرت قرارًا بفصل عاملة النظافة المدعوة أم سعيد بشكل مؤقت لحين البحث في العقاب الأنسب لها؛ كونها تسبّبت بأضرار معنويّة وجسديّة بليغة لها بعد انزلاقها نتيجة انسكاب الماء الممتزج بالصابون على الأرض. أما العاملة أم سعيد فقد ألقت باللوم كاملًا على المعلمة التي نزلت الدرج تتخبط دون أن تنظر حولها فارتطمت بها مما أدى إلى وقوع الدلو الذي كان يحوي الماء.

وبدورها، ذكرت المعلمة اسم فتاة رعناء تجرأت على إخافتها ممازحةً إياها وهي تهم بنزول الدرج. والمعلمة -لسخرية الأمر- تلوم الطفلة ذات الأعوام الستة..

إلا أن أحدًا يا سيدي لم يأت على ذكر الصرصار المدسوس، وتحملت وحدي الذنب كاملًا!».

قهوة بالسكّر

«الآن؟»..

هذا كل ما كان باستطاعتها أن تفكر به في حينها؛ فأي توقيت لعين ذاك الذي ستضطر فيه لبدء حياة كهذه؟ أو بالأحرى الاستعداد لانتهاء الحياة.

- لكم اشتهيت زوال الحياة من قبل ولم يصبني شيء! وحين انقلب الأمر وعدت إلى نقطة البداية الصحيحة كما يفترض، يريدني القدر أن أتوقف هناك!

ظلت تهز قدمها وهي تضع ساقًا فوق الأخرى وتقضم ظفرها حينًا أو تفرك حاجبيها حينًا آخر.

لم يكن في غرفة الانتظار سوى رجل ثلاثيني يرتدي ربطة عنق صفراء وقميصًا أبيض.

لم يبدُ لها مريضًا على الإطلاق، بل بأحسن حال، وأنه سيتلقى حتمًا من الطبيب خبرًا مُطمئنًا لكنه لا يعلم ذلك بعد..

- قد يكون الأمر بالنسبة لي أيضًا كذلك.. لم التشاؤم؟

فكرت وهي تطالعه وقد أشعرها بالسكينة.. فرمقته بنظرة احترام.

وبدوره كان ينظر إليها بين الفينة والأخرى، فكلما أزاح أحدهما نظره عن الثاني، همَّ الأخير باختطاف نظرة سريعة.

فكرت بطلب ورقة وقلم من السّكرتيرة لتُدوّن الاحتمالات الممكنة كافة، والخطط المقترحة لكل منها، لكنها لم تفعل ذلك لسببين: أولهما أنها لا ترغب في خوض أيّ حوارات مهما بلغت من العمق أو السطحية مع السكرتيرة الفضولية ذات القهقهات المزعجة. وثانيهما أن كافة الاحتمالات لا بد أن تفضي إلى حقيقة واحدة وخطة واحدة؛ أنها ستهتم بابنتها أكثر وستعوضها عن كل اللحظات التي تركتها فيها تستكشف الحياة وحدها، أو بالأحرى برفقة أمٍّ ملّت من روتينيات الحياة، وترهاتها، والتزاماتها.

وعوضًا عن الورقة رسمت في ذهنها سهمين متعاكسين تقف بينهما بجسد صغير ورأس أكبر.

الأول يشير إلى احتمالية كونها مصابة بالمرض، وإن صح ذلك فإنها حتمًا ستستغل ما تبقى من عمرها في إسعاد ذاتها وابنتها، تمامًا كما في المسلسلات والأفلام.

والثاني يشير إلى عدم إصابتها به.. وحينها ستعرف حق كلِ ثانية من عمرها وقدرها، وستسعى لإسعاد ذاتها وابنتها قدر الإمكان كما في المسلسلات والأفلام أيضًا.

وفكرت أنها بعيدًا عن دورها كأم، إن تحقق الاحتمال الثاني (عدم إصابتها بالمرض) ستكون ممتنةً للفرصة التي منحها القدر إياها.. أو الفرص العديدة في كل يوم، والمزايا الكثيرة التي كانت تستحق منها

تقديرًا مضاعفًا؛ كأن تستيقظ أساسًا من النوم والآلاف على وجه البرية قد أغمضوا أعينهم إلى الأبد في الليلة نفسها.

وأنها بعد استيقاظها تتخذ معظم قراراتها بنفسها، نعم هذا أيضًا مهم، فلم يخلُ العالم إلى اليوم من أشكال العبودية وانتهاك الحقوق، ولو بطرقٍ غير مباشرة، وعلى مستويات قد لا تُدرك بالعين، منها غياب حق الفرد في القرار..

أن تنظر للأعلى فتجد لبيتها سقفًا، وتتذكر أنها من المحظوظين الذين لا يحملون همّ المبيت أو إطعامِ الأبناء..

وغيرها من النعم مع عدم حصر المسألة بالأشياء المصيرية، أو تلك التي تحدد طبيعة حياتها ومستواها المعيشي بشكل عام، بل التوسع بها لتشمل الصغائر التي كانت على بساطتها تستلزم منّا اهتمامًا أكبر وشكرًا أكثر، وابتسامات أصدق؛ كأن تلسع لسانك بالقهوة الساخنة التي لم تحتمل انتظارها لتبرد بعد أن تسللت رائحتُها القويةُ من أنفك إلى خلفية رأسك فدغدغته بدفء..

أو تنظر مباشرةً ومطولًا في عيني طفل رضيع يضحك بإفراط.. وتكون أنت من أضحكه.

أن تتقافز الفرحة في صدرك ويسيل اللعاب داخل فمك عند وضع طعامك المفضل والمُعَدّ لك خصيصًا أمام ناظريك.

أن ترتمي بجسدك مستسلمًا فوق فراش وثير، وتتلوى بين أغطيته النظيفة بعد يوم شاقٍّ ومنهك.

أن تُذاع صدفةً على الراديو، وأنت برفقة صديق في السيارة، أغنيةٌ قديمة لطالما أحببتماها، فيكتشف كل منكما أنه ما زال يذكر كلمات الأغنية حرفًا بحرف، حتى اللحن الذي تدندنانه معها بتزامن احترافي وبصوتٍ عال.

أن تجد مقاسًا مناسبًا للثياب نفسها التي كنت تبحث عنها، ويتضح في ما بعد أنها خاضعة للتنزيلات.

أن تتاح لك فرصة استنشاق رائحة الأرض حين تمطر لأول مرة في العام.. وتحديدًا في الدقائق الأولى.

أن تشعر بتلك الدغدغة في أحشائك حين يقود أحدهم بك السيارة مسرعًا على منحدر طفيف وكأنك داخل لعبة الأفعوانية.

أن تُلغى مناسبة ما على حين غرّة، وقد كنت تستميت للتملص منها بأي حُجة.

أن تفكر بأحدهم ويراسلك في الدقيقة نفسها، فترتبك وتلقي بالهاتف جانبًا لاستيعاب ما حصل للتو.

رائحة البنزين.. عطلة منتصف الأسبوع.. جلسة البوح بأسرار دفينة بعد منتصف الليل.. تلقي هدية أجمل من المتوقّع.. الإحساس بدفء أشعة الشمس والملابس الخفيفة في أول يوم من الربيع بعد فصل شتاء طال ولا يحتمل.. آخر اختبار جامعي بعد أعوام من الدراسة.. أول خطوة خارج بوابة المطار على أرض بلاد ساحرة.. عدم الرغبة في الانتهاء من

قراءة كتاب بدا وكأنه يتحدث عن قارئه بالتفصيل.. وأخيرًا: نيل فرصة ثانية للإبقاء على ما كاد يفلت منا بشكل نهائي وعرفنا قيمته قبل أن يغيب.

هدأت قليلًا بعد أن نظرت إلى الرجل ذي القميص الأبيض وربطة العنق الصفراء. تنفست بأريحية، ثم رمقته بنظرة شكر لا يفهمها سواها، وبينما هي تنظر إليه نهض إثر إعلان دوره في الدخول..

داهمها القلق مجددًا، أحست بأنه هي في المستقبل القريب، إنه في طريقه لمعرفة نتيجة ما.. ها هو يسير بتراخٍ نحو مصيره الذي تفصله عنه بضعُ خطوات ولحظات، فعند طبيب كهذا، وفي عيادة كهذه يخرج المرء وقد تقرر مصيره على الأقل لبضع سنوات قادمة.

عادت لقضم أظفرها وفرك حاجبها.. معًا، إلى جانب هز القدم بشكل مباغت بين الدقيقة والأخرى، وراحت تفكر في ما لو لم يسعفها الوقت لتحقيق نتيجة الاحتمالين، في ما لو لم تُكتب مع المحظوظين ورحلت عن الدنيا قبل أن تتمكن من وضع تصوراتها العقلية عن الحياة السعيدة المتبقية مع وحيدتها موضع التنفيذ، في ما سيحدث للمسكينة بعدها..

نظرت حولها فبدا لها كل شيء باهتًا ومنفّرًا، توجهت إلى نافذة العيادة..

حتى الهواء، كان مُشبعًا برائحة الدخان والرحيل..

للرحيل رائحة مألوفة لا نستطيع شرحَها أو وصفَها بدقة إن طُلب منا ذلك. لكننا على يقين بوجود رائحة تسبقه أحيانًا أو ترافقه.. وتختلف كلَّ مرة تبِعًا للشعور، فالرحيل الذي تنتظره يحمل في ميعاده رائحة منعشة

ولاذعة في الحين ذاته.. تغريك وتسحب أنفك نحو شيء ما رغم القلق، أما الرحيل الذي تكون مرغمًا عليه فرائحته قاسية.. ثقيلة.. مُرّة؛ تشعرك بغثيان حاد وكأنك لا تشمه وحسب بل تختنق به.. أما ذاك الذي يكون محايدًا فلا تشتهيه أو تكرهه بالضرورة، ولا تستطيع تحديد شعورك تجاهه بالضبط، لكنك تستشعر جديته وهيبته، بل قد تبكيك هيبته دون أن تدري كيف ولماذا! رائحة هذا الرحيل تشبه رائحة السكر الأبيض.. هل شممت السكر يومًا عن قرب؟ لا رائحة تُذكر، لكنك تشتم شيئًا فاترًا جافًّا عصيًّا على الوصف، تشك لغرابته، فتقترب لتشم مجددًا علك تستطيع محاصرة الرائحة أكثر، ليست لطيفة ولا كريهة.. إلا أنه ليس خاليًا من الرائحة تمامًا.

أما رحيلها فهو مزيج من ذاك الإجباري والمحايد؛ فهي ليست من المعجبين بالحياة المديدة، إلا أنها لا تنكر هيبة الرحيل عنها، ولا تستوعب فكرة ترك وحيدتها تعاني فيها، وفي هذا التوقيت بالذات.. ما أصعب أن تختنق بالسكّر!

تبادر لذهنها أن توقف الرجل حين يخرج، وأن تحدثه عن كل ما يدور في رأسها من تناقضات وصراعات لا يفهمها إلا من سبق وجلس هنا.. لا بد أنه رغم غرابته وغربته عنها سيكون أكثر من يفهمها الآن..

غريب هذا العالم.. يضعك أحيانًا في مكعب كبير (وهو غرفة العيادة في هذه الحالة) مع شخص يمر بما تمر به، ولربما تقاطعت حياتكما بأشكال ومستويات أعقد، يبعد عنك مسافة خطوتين أو ثلاثٍ فقط، يشاركك

الأوكسجينَ نفسه، والهواجسَ والمخاوف نفسها، وطاقَة المكان نفسها، ومزيجَ الأمل واليأس نفسه، والاحتمالات نفسها. ولكنه غريب.. وابن خال جدك الذي تفصلك عنه ملايين المكعبات ومليارات الخطوات ولا تعرف عنه غالبًا أبعد من اسمه، ولربما لم تلتق به قط، قريب من الأقارب!

إلا أنها لن توقفه ولن تحدثه عن شيء لسببين: أولًا، قد يكون الرجل مجرمًا فيؤذي ابنتها.. ولمَ لا؟ رغم أن ذلك لا ينفي بالضرورة التهمةَ نفسها عن ابن خال جدها مثلًا..

وثانيًا، أنها لا تنوي إكساب السكرتيرة الفضولية ذات القهقهات المزعجة شرف سرد قصة درامية طازة من قلب الحدث على مسامع الآخرين.

وفي محاولة لقتل لحظات الانتظار التي اتضح أنها أصعب ما مرّت به حتى اللحظة، قامت بفتح هاتفها المحمول والتنقّل بين الصور والتوقف عند بعضها، ومع كل صورة أو شريط فيديو لابنتها كانت تتكسر من الداخل كلوح زجاج هش..

أحست بالعجز تمامًا عن مواصلة تحدي الانتظار، فحملت حقيبتها وقررت أن تلغي يومها بأكمله! أن تؤجل يومًا كاملًا، لا عمله فقط، إلى الغد.

لا تريد هذا اليوم، ببساطة لا تريده. ألا يُسمح لآدمي عاش آلاف الأيام أن يتجاهل يومًا؟

وفور أن وقفت لتغادر خرج الرجل ذو القميص الأبيض وربطة العنق الصفراء من حجرة الطبيب، وبالتزامن مع خروجه نادت الممرضة اسمها معلنةً دورها بالدخول.

تفحّصت وجهه موزعةً طاقتها بين التركيز والسرعة رغم التوتّر العالي، كمن يحاول نقل الإجابات من ورقة اختبار زميله.

لم يكن سعيدًا، لكنه لم يكن حزينًا كذلك، تساءلت في نفسها:

- أي رجل هذا الذي يجلس في مكان كهذا دون أن يبدو عليه التوجّسُ أو القلق؟ يخرج تمامًا كما دخل! دون أن تشي تعابير وجهه بشيء.. إنه ليس ببشر.. حتى وتيرة أنفاسه لم تتغير، ما زال يتنفس ببطء قاتل، ويمشي بتراخٍ وهدوء مستفز.. حتمًا ليس ببشر، لربما هو المرض بذاته!

شعرت بالاشمئزاز منه، ورمقته بنظرة انزعاج.. ثم دخلت.

وبينما هي تهم بالجلوس على المقعد المقابل للطبيب، وتناوله مغلفًا بنيًّا كبيرًا..

رمى المؤلف القلم من يده المرتجفة، وأغلق الدفتر عاجزًا عن الكتابة أكثر..

- تفضل.

تناول من يد ابنته فنجان القهوة التي لم يقاوم تذوقها على الفور، ولما لسعت حرارتها لسانه ودغدغت رائحتها رأسه بدفء، خلع ربطة عنقه الصفراء وانكفأ بوجهه فوق الطاولة يكظم نواحًا يريد أن ينفلت.

سندريلا

- أعلم أنك تحملتني كثيرًا.. وليس من طبعي خيانة العشرة أو نكران المعروف.. ولكن..

تلتقط بأصابعها بضع حبّات من الترمس وتضعها في فمها دفعة واحدة. لو لم أكن مضطرة لمما قلت ما أقوله الآن.. إني فتاة في مقتبل العمر، أكترث لمستقبلي، تعنيني راحتي، وكسائر الفتيات يهمني أن أظهر بأفضل مظهر. إن حججي سخيفة، لكن هل يشكل السخف هنا فارقًا؟ معظم الأشياء حولنا تتسم بالسطحية وبالمظاهر الزائفة، وصدقًا لست أسعى لها بقدر ما أسعى الآن لتلك التي أستحقها على أقل تقدير، أرجوك تفهّم موقفي.. أنت لا تليق بي بحالتك هذه!

وبعيدًا.. بعيدًا عن المظهر، إن تحدثنا عن الجوهر، صدقني لم تعد مريحًا كفاية، وأنا الآن أتحدث عن شيء داخلي بحت. ألا يكفي أنك قد لازمتني أعواما؟

ألا يحق لي أن أحظى ببديل أفضل مثلًا؟

كما أسلفت، ما زلتُ شابة وجميلة.. وهذه حقيقة، فكيف لمثلي أن تظهر بك على العلن؟ لا أرى ذلك مناسبًا أو عادلًا بأي شكل.

قد يبدو المرء في حالات كهذه فظًّا جلفًا، إذ ينفجر متفوهًا بتفاصيل تجعله يبدو بنظر الغير ناكرًا للجميل، ومعدوم الإحساس دون أن يعي

الطرف المقابل أن هذه الكلمات والتفاصيل التي بدت جارحةً قد استهلكت من عمر قائلها الكثير من المسايرة والتحمل والصبر والسلوى والحجج، وشتى المبررات لعدم التفوه بها أو حتى التفكير فيها، دون أن يعي أنها قبل أن تستفزه كمستمع، كانت تستنزف طاقات صاحبها كل يوم أكثر..

أنظر إلى غيري من الشابات وأشعر بغبطة حقيقية، لا.. ولم الكذب؟ أشعر بالغيرة.. نعم الغيرة والحسرة، فلو كنت أملك حظًّا أوفر بعض الشيء، لما كنت أنت بالذات من نصيبي!

أنت لست بذلك السوء.. ولكني أستحق الأفضل.

وأنا لست جشعة ولكني بدأت مؤخرًا أدرك قيمة ذاتي، ولن ارتكب بحق نفسي جرمًا وأرضى بأقل مما أستحق.. إنه جرم فظيع وليس بالبساطة التي يبدو عليها.

لماذا نجبر ذواتنا في مواقف كهذه على استذكار عثرات الطرف المقابل والتوقف عند المحطات التي خذلنا بها.. فقط كي نخرج من موقف التخلي بكامل براءتنا؟ لمَ لا يمكنني الاعتراف أن الأمر لا يتعلق بك وحسب؟ أنني «أنا» من يرتجي بداية جديدة لستَ فيها؟ ببساطة هكذا..

الذنب؟ الذنب الحقيقي هو أن ننكر، وأنا لا أنكر من المعروف شيئًا.

الذنب الحقيقي هو أن نكذب ونغش، وقد آثرت الصراحة على سواها.

أيهما أعظم ذنبًا؟ أن أفرط في الكتمان وأكابر أكثر وأُستهلكك كل يوم أكثر فأكثر رغم عدم رضاي عنك، أم أن أزعجك بالحقيقة ليوم واحد؟ الحق أنك قد رافقتني في كل خطوة من خطواتي.. كنت معي في لحظات الفرح والحزن، أعنتني على الرقص وعلى الهروب.. لكن الأمور لم تعد كسابق عهدها، أنا لم أعد كسابق عهدي، وكذلك أنت.

تغلق كيس الترمس بقبضة يدها.. تقف وتنظر مجددًا إلى حذائها الرث الممتلئ بالشقوق والثقوب، ثم تتابع:

لا أكون سخيفة إن عاملتك على هيئة قرار مصيري، وطلبت غيرك، فكرت بالأمر أكثر من اللازم.. ما السخف في رغبة باستبدال حذاءٍ بالٍ؟ بل السخافة الحقيقية هي أن أُبقي عليه ظنًّا مني أنّي أقل من امتلاك رغبة كهذه، ثم إن في ذلك سعيًا لمظهر أفضل، واستحقاقات أعلى، فأحلام أكبر، ثم حياة أجمل.. نعم أحلام وحياة. وما العيب في ذلك؟ لستُ سخيفةً البتة.

تصل إلى وجهتها المنشودة، تقف أمام الواجهة الزجاجية لأحد متاجر الأحذية، تلتقط مجددًا حبتين من الترمس وتراقب الحذاء بالكعب العالي الذي ظلت لأشهر تتردد للمكان نفسه كي تتأمله..

«لم يسبق لي أن خرجت مرتديةً حذاءً بكعب عالٍ، كنت قد جربت واحدًا في منزل إحدى السيدات اللاتي عملت لديهن، وكنت وحدي في المنزل ذاك النهار، رغم أني تعثرت وسقطت بعد بضع خطوات به، إلا أني حين نهضت مجددًا وتأملت نفسي في المرآة التي تُظهر الجسد كاملًا، لم

أعرفني! كنت أشبه بأميرة من الأميرات، لا بل بملكة.. أو إمبراطورة مُعتدّة بذاتها، أحادث الغيم ولا أكترث للأرض وهمومها، كنت.. فوق! أعلى من الأشياء والأشخاص، ممشوقة، سامقة.. حاولت أن أمشي بثقة أكبر، فإذ بي أصدر إيقاعًا يخبر عني قبل أن أصل، يصنع لي حضورًا يسبقني، يهيئ لقدومي.. وكل شيء في انتظاري».

تنظر مجددًا إلى حذائها الرث..

عجيب ما تفعله بضعة سنتيمترات بروح المرأة!

تفتح حقيبتها وتعد المبلغ المخبأ داخل كيس قماشي صغير وتفكر:

«لو قلنا خمسة دنانير من صاحبة المنزل هذا.. وعشرة من تلك.. ودفعة في الانتظار سبعة»..

وراحت تهمهم وتجري الحسابات الرياضية اللازمة.

«يلزمني بضعة أشهر أخرى لأتمكن من شرائه، لا بد أن أترك في الأسبوع المقبل عربونا على الأقل».

كانت قد بدأت بادخار المبلغ منذ أن أسر الحذاء قلبها، وفي كل مرة تدّخر فيها شيئًا بسيطًا تتفاجأ بظرف عارض وعاجل يقتضي إنفاق جزء منه، وكلما أنّبت ذاتها على طيشها هذا وعلى فكرة إنفاق مبلغ كبير (بالنسبة لها) على فردتي حذاء، كان شيء ما بداخلها في المقابل يذكرها بأنها لا تشتهي الطعام والشراب بقدرِ ما تشتهي الحذاء الذي ظلت تُمنّي النفس به، الأمر الذي دفعها للتخلي عن وجبة العشاء في معظم أيام الأسبوع لادخار المزيد.

تعود إلى غرفتها وقد حل المساء، تستلقي على فراشها الممدود على الأرض، تطفئ الضوء وتنير ليلها بأحلام اليقظة، فقد بات الحذاء يحتل مرتبة الصدارة في عالم ما قبل النوم لديها، وأخذت تفكر؛ كيف ستبدو به؟ وأي حظ سيجلب لها؟

«قيل في الأمثال الصينية القديمة إن الحذاء الجميل يذهب بك إلى أماكن جميلة».

نظرت إلى حذائها البالي القابع بجانبها كسنة حياة فرضت عليها.. ثم عادت لتحدق في السقف وهي تتمتم:

«ترى إلى أين سيأخذني؟ وحين أغمضت عينيها لتحُسِن التخيّل جثم النعاس عليهما بثقله».

***

في صباح اليوم التالي..

«ذاك مثلًا، إنه تاجر كبير في الحي، عُرِف عنه نفاقه وازدواجيته، ها هو يُلمّع حذاءه عند ماسح الأحذية ليعيد له بريقه ويبدل حاله إلى حال أبهى وأنظف، كما يفعل يوميًّا بسمعته وما يظهر من شخصه أمام من ما زال يجهله، وتلك العجوز الساخطة التي لا تنفك تشكو الوحدة، يكشف حذاؤها الأحمر البراق جانبًا منها لا نعرفه.

إن نظريتي صحيحة؛ تروي الأحذية قصص أصحابها شاؤوا أو أبوا، فإما أن يتواطأ الحذاء مع صاحبه أو ضده».

واصلت سيرها المعهود في نفس الطريق لتقف مجددًا أمام الواجهة الزجاجية نفسها، وفجأة..

أحست بنوبة ذعر لم تعرف مثلها في حياتها، رأت كل الأحذية معروضة خلف الزجاج إلا حذاءها المنشود، هُرعت إلى داخل المتجر كمن صُعق ببرق من السماء، نادت البائع والغضب يتدفق في شراينها.. سألته بلهجة حادة، وكأنها تحمله المسؤولية بأكملها، عن سبب اختفاء الحذاء من الواجهة، كما سألت إن كان يمتلك زوجًا آخر منه في الداخل، فأجابها بأن الحذاء قد تم بيعه قبل أن تدخل بقليل، ونفى وجود زوج آخر من النوع نفسه، إذ ظل يعرضه يوميًّا لأشهر متتالية على الواجهة عسى أن تبتاعه إحداهن.

راحت تقلب نظرها بيأس وبقوى خائرة في زوايا المتجر.. لا شيء يشبهه.. توقفت بعدها عن البحث وعن الأسئلة وقد سقطت على خدها دمعة تبعث الدفء وسط برد قارس، شدت بيدها ياقة معطفها الذي تقطعت معظم أزراره، وخرجت من المتجر دون أن تنبس بحرف.

«قارَب عام آخر من عمري على الانتهاء، وأمضيت معظمه في انتظار حذاء الأحلام.. أو الكوابيس لست أدري».

إنه كل الفرص التي تتاح لنا خلف واجهة الحياة، وحين أمد يدي.. أنا بالذات، لأغتنم شيئًا منها، تتبخر أمام ناظري وأعود فارغة اليدين.. لم يكن إفلاته مني مصادفةً.. ولا نصيبًا، ولا أيًّا من تلك التفسيرات التي تم اختلاقها لتعليل غياب الفرص أو ضياعها، بل تجسيدا حقيقيا لحالي

وحال أمثالي ممن يقضون عمرهم في تعليل النفس بما لا تستحق، للطبقية اللعينة التي تضعه الآن في قدمَي أخرى بعد أن تحفره في قلبي.

تعود إلى بيتها تجتر الحسرة وحذاءها الذي أصبح يثقل خطاها أكثر فأكثر..

تستلقي على فراشها ككل ليلة تتخيل شكل الحذاء..

تتخيله هذه المرة وهو في قدمي غيرها، كيف ستبدو به؟ وإلى أين سيأخذها؟ إلى أين سيأخذ كل اللواتي ابتعن مثله بينما هي حبيسة هذه الغرفة التي لا تبعث إلا الكآبة ورائحة الرطوبة..

لم تستطع أن تنظر إلى حذائها، تهيّأ لها أنه يستهزئ بها، ينظر إليها بعين الشماتة، ويضحك.. يضحك بصوت يكاد يصم أذنيها سخريةً.. تتحايل على البكاء الذي يصارعها معلّلة الأمر لنفسها باعتيادها مُذ كانت طفلة على الرغبات غير المُلبّاة، والحاجات التي لا تُسد، والأحلام التي لا يُسمح لها حتى أن تظل أحلامًا.

***

بعد أشهر..

في طريقها إلى المنزل وعند الواجهة الزجاجية التي امتنعت عن النظر إليها ولو نظرة خاطفةً (بعد أن أنفقت ثلثي المبلغ المدّخر على الأولويات التي كان من الأوجب أن يتم إنفاقه عليها) شعرت بنوبة ذعر تشبه تلك التي أصابتها قبل أشهر في المكان نفسه ولكن بشكل أشد، فقد وقعت

عيناها وهي مطرقة الرأس على حذاء الأحلام مجددًا، إنه يتحرك أمامها بكامل بهائه وهيبته، رفعت نظرها ببطء وقلق..

شعرت بشيء من الغثيان المصحوب بدوار خفيف، حاولت أن تلتقط أنفاسها المتلاهثة وهي تتساءل في قرارة نفسها:

«هذه هي إذن صاحبة الحظ السعيد.. ماذا تريد بعد؟! حذاءً آخر؟ حلمًا آخر؟ وحياة أخرى.. ألا يكتفي أمثالها بتحقيق رغبة واحدة؟ إنهم يبدلون أحلامهم ورغباتهم كما يبدلون ثيابهم.. أو العكس، ولا يصبرون على أيها.. يتلهفون للتجديد والتغيير بداعٍ وبلا داع، ماذا يعرف أولئك عن الصبر على العوز على أي حال؟

لا تستحق حذاءً بهذا الجمال.. حذاء كهذا يفترض أن يكون رفيق درب..

أن يصبر عليها وتصبر عليه في السراء والضراء»..

قاطع خطابها الذهني مشهد أفزعها أكثر.. ثم أراحها، إن صاحبة الحذاء تخلعه، تجرب حذاءً جديدًا ترتديه فورًا، ثم تدفع ثمنه وتغادر بكل سعادة تاركةً حذاء الأحلام على الأرض..

تدخل المتجر بهدوء تام هذه المرّة..

تسأل البائع عن السيدة التي خرجت لتوها وعن سبب تركها للحذاء، فيجيب:

- لقد تعرضَت لحادثة بسيطة تسببت في إحداث خدوش لا يمكن إصلاحها في الحذاء، فابتاعت آخر وارتأت ترك هذا هنا..

- وماذا ستفعل به؟

- كما أخبرتك، لا يمكن ترميم هذه الخدوش..

فكرت في ما كان يقال لها منذ أن أتت إلى هذا العالم: إن الكثير من الأشياء التي نحبها ونتعلق بها يتضح في نهاية المطاف أنها كانت لتكون شرًا لنا..

- بالطبع! شر..

صاحت برضا وقناعة.

- عفوًا؟ رد البائع..

راحت عيناها تتسعان وتضيقان كمحقق على وشك فك لغز جريمةٍ قد حيرته، ثم ردت بنبرة حاسمة:

- هنالك عيب في الحذاء.. بسببه تعرضت السيدة للحادثة أثناء سيرها أو نزولها السلم، أو أيًّا كان.. ولأنك تعرف بشأن ذاك العيب المصنعي على الأغلب، عرضته كما اعترفت منذ مدةٍ، يوميًّا ولأشهر متتالية على الواجهة عسى أن تبتاعه إحداهن!

نظر إليها باندهاش ثم عقّب قائلا:

- لديك مهارات تحليلية رائعة بحق يا آنسة، لكنها غير صحيحة..

يمكنك فحص الحذاء وتجربته إن أردت، وأتحداك بعرضه على أي خبير في هذا المجال، صناعته ممتازة باستثناء الخدوش التي ظهرت بعد الحادثة.. كل ما في الأمر أننا قمنا بتفصيل هذا الحذاء خصيصًا لإحدى السيدات، لديها صلة قرابة بمدير المصنع فطلبت ذلك. واحد لا يوجد

غيره.. ولما لم تظهر السيدة، ولم تأت يومًا حتى للسؤال عنه، قمنا بعرضه للبيع.

شعرت بالخيانة.. كل عبارات المواساة التي ألقيت على مسامعها وهي طفلة تخونها الآن في هذه الحظة.. أرادت أن تكسّر الأشياء حولها.. لكنها لم تكن لتفعل ذلك في صغرها.. كانت تصمت وتسامح تلك العبارات.. وتعطيها فرصة أخرى.

- أؤكد لك، لا يوجد أي عيب في الحذاء..

وللتأكيد على صحة قوله رفع الحذاء بيديه أمام ناظريها، بادرت بلمسه وهي تغمض عينيها لثوانٍ.. وتابع:

- لذلك، إما أن أتخلص منه، أو..

- أو ماذا؟؟

رد وهو يتفحصها من أخمص قدميها إلى رأسها ثم إلى قدميها مجددًا:

- بإمكانك أخذه، أذكر تمامًا حين دخلت مغتاظةً باحثةً عنه.. وها هو إن أردت، رغم حالته السيئة بعض الشيء!

نظرت إلى حذائها الذي ترتدي بسخرية والفرحة تتقافز في صدرها وردَّت:

- سآخذه، لا يهمني ارتداؤه.. يكفيني أن العدالة الكونية وضعته بين يدي لمواساتي من جديد، يكفيني أن أعلقه في غرفتي لغايات التأمل

وحسب.. وعلى أي حال فغرفتي معتادة على الأشياء المخدوشة والمثقوبة وكل ما يخطر ببالك..

ضحكت وهي تحني ظهرها وتتفحص فردتي الحذاء الذي بدا بحالة جيدة بالنسبة لها، وبمقاس مناسب كأنه قد صُمّم لها في نهاية المطاف.. كانت سترتديه حتمًا لكنها أخفت عن البائع استعدادها لذلك.

وقبل أن تُدخِل قدمها به للتأكد من المقاس، حاولت أن تتخيل مظهرها به بعد طول انتظار، فهذه المرة الأولى التي يمكنها فيها اختبار أمر لطالما أرادت تجربته، ونقل النتيجة من لائحة الشك إلى الإثبات.. ولا يتم ذلك إلا باستغلال لحظة طال انتظارها بأن تعيشها في خيالها قبل أن تعيشها واقعًا بثوان معدودة لتعقد مقارنةً بين الحالتين، وتميّز ما إذا كان الفرح في الواقع أشد لذةً منه في الخيال أم العكس.. إلا أن الحياة لم تشرفها بتجربة لحظات كتلك، على الأقل وهي راشدة وواعية.

استفاقت على صوت البائع وهو يتابع حديثه الأول بعد صمت قائلًا:

- لكن، نقوم في هذا المتجر بإرسال الأحذية التي اتضح لنا وجود عيب ما فيها، أو تعرضت لذلك في ما بعد إلى معمل إعادة تصنيع الأحذية والحقائب الجلدية، وبحكم أني لا أستطيع بيع هذا الحذاء بحالة كهذه، ولأني مُحاسَب أيضًا من قِبل مالك المتجر عن عدد الأحذية التي يتم ردها، فسيكون من المنصف أن تتركي حذاءك هذا بدلًا إن أردت.. مسألة ضمير لا أكثر.

تخرج قدمها التي أدخلتها لتوها في فردة الحذاء.. وقبل أن تكتمل التجربة بشقها الواقعي تنظر إلى البائع بمعالم يكسوها القنوط، ثم تنظر إلى حذائها الرث.. تتأرجح نظراتها لدقيقة ما بين حذائها القديم، وحذاء الأحلام، ووجه البائع..

ترتدي القديم على عجلةٍ، تلتقط حقيبتها لتغادر.. إلا أنه يستوقفها متعجبًا من ردة فعلها، فترد:

- الأمر أعمق مما تظن.. لم يتخل عني هذا الحذاء حين نويت التخلي عنه، بل اصطبر علي أكثر.. أأتركه الآن لأسنان آلات المعامل؟ إن الأحذية تشي بأصحابها وتكشف ما يخبئون! إن فعلتها، لن يكون الجديد رفيقًا جيدًا.. قد أبدو مجنونةً.. أو أني فعلًا كذلك، لم أعد أُميز.

تلقي نظرة أخيرةً على حذاء الأحلام، ثم على حذائها الذي تستفيق عليه كل يوم كواقع مُخجل، وتردّد في سرها تحت وطأة الإغراء:

- خذني إلى أي مكان.. بسرعة! ولو إلى الغرفة المتعفنة.

يتفرسها البائع بنظرة مطولة ثم يرد:

- لست مجنونة البتة، بل قنوعة، نقية، ومخلصة إلى أبعد حد!

هذا بالإضافة إلى كونك محللة بارعة.

تتورد وجنتاها وتُطأطئ رأسها كاتمةً ضحكتها.

تسحب باب المتجرِ بنية الخروج، إلا أنّ حذاءها يأبى التحرك مؤكدًا صحة النظرية..

لو أن

تعود الزوجة إلى المنزل ليلًا، تجالس زوجها ويتحادثان قليلًا قبل النوم..

- لقد عدتِ باكرًا اليوم، أين كنت؟
- في المطعم الذي التقيتك به أول مرة..
- أوه! مكان رومانسي بامتياز.

رد وهو يرتب خصلات الشعر التي تفر من مقدمة رأسها بعشوائية:

- جدًّا! وكأني أدخله لأول مرة، كل شيء بدا مختلفًا وساحرًا على نحو غريب.
- أها، أفترض من ذلك أنك لم تكوني بمفردك؟
- بالطبع لا، ولمَ أذهب إلى مكان كهذا بمفردي؟
- أخبريني أكثر..

سأل باهتمام مفتعل، فأخذت تسرد له تفاصيل الموعد، ثم بادرت بسؤاله:

- صحيح لم تخبرني، ماذا فعلت في غيابي، أراك على الجلسة نفسها منذ خروجي.
- لا شيء يُذكر، أردت الراحة فحسب، تصفحت الإنترنت. دخلت لأول مرة غرفة دردشة تضم أشخاصًا من شتى بقاع الأرض!

- أحادثت أحدًا، أم بقيت تراقب؟

سألته وهي تتأمل طلاء أظافرها المتلألئ.

- حادثت أرملةً، أرسلت لي صورتها، وأرسلت بدوري بضع صور لها أيضًا، إنها جميلة، لكن هذا لم يكن ما جذبني إليها في حقيقة الأمر، فقد وجدت بيني وبينها عوامل مشتركة كثيرة جعلتني أرغب في التعرف إليها أكثر.
- وماذا بعد؟
- لا شيء، سأترك الأمور تسير بتدرج وتلقائية.
- لا ضير، أتعلم؟ إنني متعبة جدًّا اليوم، سأجري مكالمة هاتفية سريعة ثم أخلد إلى فراشي، ماذا عنك؟
- سأسهر قليلًا، سأنتظر رسالة أخيرة منها، وبعدها أنام أنا الآخر، تصبحين على خير.

واعتادا، كأي شريكين، أن يجلسا في نهاية اليوم يشارك كل منهما الآخر تفاصيل يومه.

***

وبعد أعوام..

تضع سارة ساقًا فوق الأخرى، تقص أظافرها الهشة، وزوجها يرمقها بنظرات لم تفهم مغزاها.

- ما بك؟
- لا شيء..

أجابها وهو يتفحصها جيدًا، يتأمل وزنها الذي ازداد، ووجهها الذي أصبح أكثر شحوبًا، وشعرها الذي فقد كثافته، ويديها اللتين لم تبدوا له ملساوين وبأظافر براقة كما كانتا في السابق. وعلامات التعب التي بدأت تظهر عليها يومًا بعد يوم، التعب الذي يمكن أن يكون سببه كل شيء وأي شيء في هذا العالم.

بادلته ابتسامةً في المقابل، وتمنت لو كان يفكر في ما تفكر؛ فهي الأخرى كانت قد بدأت في الأسابيع المنصرمة تلاحظ عليه علامات لم تلحظها من قبل؛ كشعره الذي بدأ الزحف إلى الخلف، وظهره الذي احدودب بعض الشيء، وطباعه التي أصبحت أكثر حدةً، وأكثر ميلًا للعصبية.

- صحيح، ماذا حدث مع ذاك الشاب؟ لم تحدثيني عنه مؤخرًا.
- لم أحادثه منذ فترة طويلة، لا أعلم بالتحديد لماذا وكيف بدأ هذا التراجع الملحوظ في شعر رأسك.. أقصد في علاقتي به.. لكن ما حصل قد حصل.

تسلل الملل بيننا، خصوصًا أن الأمر برمته كان أشبه بمغامرة لإعادة إحياء شغف امرأة مثلي، دافعٌ ما كان يشدني نحو معرفته أكثر، وإرضاء كبريائي وأنوثتي أكثر فأكثر، ثم بدأ ذاك الدافع بالتلاشي على نحو غامض.

- فهمت، لعله خير.

أجابها باقتضاب وهو يرمقها مجددًا بنظرات مبهمة، ويتحسس شعره.

- ماذا عنك وتلك؟
- انتهى كل شيء، بصراحة كانت تبدو أكثر غموضًا قبل أن أتعمق في معرفتها، يظل البعض أشبه بأحجية جميلة إلى الحد إلى يجعلك تتعطش لفهمها ولملمة أجزائها، وحين تتمكن من ذلك تصبح اعتياديةً، بل مملةً جدًّا.
- صحيح.

أجابت وقد فرّت من شفتيها ابتسامة طفيفة سرعان ما أبدلتها بوجه يشي بالجدية.

لاحظ ابتسامتها، فأشاح سريعًا بوجهه عنها مبتسمًا هو الآخر.

***

بعد شهرين..

- هل التقيتما اليوم؟

أجابت بإيجاز:

- نعم.
- أخبريني أكثر..

سأل باهتمام حقيقي.

- جلسنا في أحد المطاعم.. مطعم مختلف عن ذاك الذي قابلتك فيه لأول مرة (لم تخبره عن السبب، وأن ذاك المطعم بات يعني لها أمرًا أشد خصوصيةً الآن).

تحادثنا كثيرًا (ولم تقل له إنها، أثناء حديثها مع جليسها، كانت تفكر فيه، وكيف يشغل وقته في المنزل ومع من.. فبلا سبب واضح كانت تلك الأمور تتبادر لذهنها بين الدقيقة والأخرى).. ماذا عنك؟ ماذا فعلت؟

- أشياء كثيرة.

أجاب بشكل عام وقد أخفى حقيقة أنه ظل جالسًا بعد رجوعه من العمل ينتظر قدومها لا أكثر، وأنه قد فقد رغبته في تصفح المواقع واكتشاف الأخريات مهما كنّ جميلات ورائعات.

- أشياء كثيرة مثل ماذا؟

ردت وقد ظهرت على وجهها معالم الفضول.

- لا شيء.. على الإنترنت..

ارتبك قليلًا، تململ في جلسته، ثم نهض بسرعة كمن تلبَّسه عفريت، وظلت مكانها بلا حراك.

استدار نحوها، أراد أن يقول شيئًا، إلا أنه تدارك الأمر، وتابع سيره نحو غرفته.

بعد مرور ساعتين لحقت به، أخذت تمعن النظر فيه وهو يغط في النوم، متأملةً كيف بان عليه التقدم في السن فعلًا، إلا أن هذا لا يبرر شعورها الحالي ووساوسها التي باتت لا تفارقها.

دارت في رأسها هواجس كثيرة وخيالات غريبة، تعوذت منها وحاولت أن تشغل تفكيرها بأمور أخرى، إلا أن محاولاتها في التسلي لم تفلح. ظلت تنظر إليه بين الفينة والأخرى بضمير معذب، وفي رأسها

أسئلة لا تفارقها: كيف لها أن تفكر بما تفكر به؟ وما هي عاقبة أفكار كهذه؟ لا بد لها أن تستحيل واقعًا في نهاية المطاف، كيف تتدارك الأمور قبل أن تغرق في طيشها هذا أكثر؟

تقلبت في الفراش قليلًا، ثم أطفأت اللمبة، أدارت جنبها عنه في محاولة أخيرة للنوم.

استشعر حركتها، وانطفاء الضوء. أراد أن يسألها عن سبب استيقاظها إلى هذه الساعة المتقدمة من الليل، لكنه فضل أن يتحاشى أي حديث يكشف منه ما يحاول إخفاءه.. إذ إن أمورًا كهذه –باعتقاده– تظهر بوضوح على صاحبها ولو بسؤال سخيف.

***

- لست متأكدة إن كانت شكوكي في محلها، أيعقل؟ قالت وهي تحادث صديقتها.
- لا أعلم، لكن يقال في مثل هذه الحالات «قلب المرأة دليلها». راقبي حركاته، وسكناته، وتصرفاته، وكلماته، ونظراته.. راقبيه قدر المستطاع.
- لا أستطيع لومه إن ثبت الأمر، فأنا الأخرى..
- أنت؟! كيف؟ لماذا لم تخبريني من قبل؟
- لأتمكن من فهم ما يحدث لي أكثر، لأتأكد من حجم الجنون الذي اقترف بحق نفسي.. قد يخفف كوننا متهمَين في الأمر معًا من شعوري بالذنب، لكن هذا لا ينفي أن هنالك ضربًا من الجنون! لا

تلوميني، فهو قد تغير.. تغير كثيرًا. لا أطيل النظر إليه إلا راودتني تلك الأفكار اللعينة، مع كل كلمة من كلماته، كل تصرف من تصرفاته، أتأكد من شعوري أكثر، ويزداد إصراري على موقفي وتبريري له، وفي المقابل خوفي من العواقب.

سأترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي، وما هو مقدر سيحدث.

***

بعد أسبوع..

- سارة.. ما الذي تفعلينه؟

يسأل بدهشة وهو يقف خلفها تمامًا أثناء جلوسها على الأريكة.

تجفل وتضغط عدة أزرار بسرعة، تغلق شاشة الهاتف وهي توجه نظرها نحوه ثم ترد:

- لا شيء، أُقلّب الرسائل هنا وهناك.
- وهل تشمل هذه الرسائل صوري على الفيسبوك؟
- تراقبني إذن؟ لقد دخلت صفحتك بمحض الصدفة.

يمعن النظر فيها ويرد:

- سارة.. تُقلّبين الصور واحدة واحدة، ثم تعودين للأولى وتعيدين الكرّة بمحض الصدفة؟

تتهيأ لمغادرة غرفة الجلوس.

- انتظري قليلًا، أريد أن أفهم.
- انسَ الموضوع.

- أكاد ألمح شيئًا مريبًا في عينيك!

تغمض عينيها لثوانٍ علَّ ذاك الشيء المريب يختفي، يتسارع نبضها بينما تفكر في نفسها:

- هل انكشف أمري تمامًا؟ أأخبره وأضع حدًّا لهذه المهزلة؟

يصارع كفّه التي تريد أن تحط كحمامة سلام على وجنتيها وترفع خصلات شعرها المتناثرة فوق جبينها كما كان يفعل من قبل، لكن الحال قد اختلفت الآن كما اختلفت المشاعر، ولا يمكنه ذلك.

يفكر في نفسه بأنه على الرغم من ضبطها وهي تقلّب صوره، إلا أن هذا لا يبرر له أن يتمادى أيضًا، وأن يقابل فعلتها بأفعال أفظع، إن ضميره يحتم عليه أن يكبح كل رغباته وهواجسه، أن يضحي، ويتجاوز الأمر.

- سليم.. حاولت جاهدة أن لا تأتي هذه اللحظة، لكن كُتب عليها أن تأتي، لا تلمني على ما سأقول، فأنت تغيرت، كبرت، تبدل مظهرك، اختلف سلوكك.. والروتين اللعين! الروتين هو السبب. مللت الأشياء والأشخاص حولي، شعرت بالاغتراب عن نفسي كلما خرجت، وبت لا آلفها إلا هنا.. معك..

انظُر إلى حالك لقد احدودب ظهرك لكثرة ما تكد في العمل، بدأ شعرك يتساقط.. فقدت لياقتك وعضلاتك المفتولة، لم تعد كل أموالك كما كنت شابًّا تنفق على الأندية الرياضية، وفي المقاهي برفقة الأصحاب. صارت معظمها لهذا البيت الذي ظل بفضلك قائمًا، ولشدة تعبك بت تصدر شخيرا أثناء نومك.

لقد كبرنا معًا يا سليم! أشياء كثيرة بت ألحظها وأهتم بتفاصيلها، ولعل هذا ما أوصلني إلى هذه اللحظة الحرجة، إني أقدر لك ما تفعله لأجل أن تستمر حياتنا بسلام بنمطها المعتاد، تظنني لا أنتبه لذلك، ولكني أفعل! والآن..

- طالما أنك اخترت الصراحة والمباشرة، فلن أتركك أسيرة جلد الذات، بإمكاني أن أظهر بدور بطولي وألقي باللوم كاملًا عليك، ولكني لن أفعل ذلك بحكم العشرة والأخلاق، فأنت أيضًا لطالما حافظت على السكينة في حياتنا، لن أتركك أسيرة الذنب والألم للأبد، أعلم مدى صدقك ولم يحدث ما حدث إلا رغمًا عنك.

لذلك سأقولها ولن أتراجع..

في الفترة الأخيرة، شعرت بمشاعر غير معهودة تجاهك، وتفاقم الشعور يومًا بعد يوم.. فأنتِ أيضًا قد تغيرت؛ لم يعد لديك الوقت الكافي لممارسة طقوس العناية كالسابق، ازدادت مسؤولياتك معي وأصبح وجهك أكثر شحوبًا وانصياعًا لآثار الزمن وضغوطات الحياة، أصبحت تداهمك أوجاع وأمراض لم تكن لتصيبك في ريعان شبابك وفي أوج حريتك، لا أدري كيف أقولها دون أن أتسبب لك بالإحراج.. لكن كل هذا، كل هذه العلامات..

خلقت عندي حالة من التعلق بك كشريكة عمر..

يتلعثم ويتحسس شعيرات لحيته الكثة، ثم يضيف:

- كيف لي أن أراك هكذا كل يوم، ثم لا أتعلق بك؟ حاولت أن أنكر شعوري وأكبته، أن أغالط أفكاري، حاولت كثيرًا صدقيني، لكن..

ينظر إليها بارتباك ويتابع:

- أعتقد أني أحـ...
- لا تكمل من فضلك.. كل شيء واضح. يبدو أن دوام الحال (فعلًا) من المحال.

يدير كل منهما ظهره للآخر وهو يتخيل فظاعة الحياة لو أن العلاقة سارت على نحو معاكس مثلًا..

تقدير

أذكر جيدًا ما الذي أوصلني والمخرج أندريه إلى هذه الصالة السينمائية العريقة التي لا تُعرض فيها إلا الأعمال الضخمة، تلك التي لم يسمح النقاد والمثقفون بيننا للتاريخ بطيّها، فاستحضروها وطفقوا يناقشون ويؤولون رموزها من جديد، أو تلك الحديثة التي -بعد عرضها على لجنة من الخبراء- تم الاتفاق على ضرورة تكريم أصحابها فلا يمرون هم وأعمالهم مرور الكرام.

إذ جلسنا أنا وهو وأحد الأصدقاء لنا قبل ثلاثة أعوام، نناقش مسائل عديدة، منها مسألة الجديد منقطع النظير في عالم الأدب والفلسفة والمسرح والسينما، وكيف يتفق للواحد منا أحيانًا أن يظن، بل أن يؤمن أشد الإيمان، أن كل فكرة جيدة ونخبوية قد قُدِّمت للعالم بشكل أو بآخر فلم يعد هنالك من جديد ذي منفعة، وأن إلصاق الماضي بالحاضر لخلق جديدٍ فيها سيكون أشبه بمحاولة متكلفة مبتذلة.

كان أندريه الأكثر توجسًا وارتيابًا من هذه الفكرة، فقد كان متلهفًا لتقديم عمل سينمائي ينضح بالتفرد، ولم نجلس معًا في مرة من المرات إلا أتى على ذكر هذه المسألة، ثم يحكي علته باستفاضة. أذكر أني كنت -وما زلت- أمتلك رؤية مخالفة، وفي مرة من المرات ناقشت بحضوره مسألة أن العالم لا ينضب من الأفكار الجديدة، فالإنسانية بحد ذاتها لا

تخلو من الغرابة المتجددة، ومن السلوكيات التي ما زالت تنتظر الكثير من الفهم والتحليل، وأن القضية ليست قضية سعي وراء الجديد والمُحدث بقدر كونها الرؤية الخاصة للأديب، أو الفنان، أو المفكر والزاوية التي ينظر منها للأشياء، فالإبداع لا يعني بالضرورة الإتيان بما لم يستطعه الأوائل.. للفرد أن يتعمق من منظور مختلف في ما جاء به غيره فيُبدع أكثر. يحدث مثلًا أن يصف أربعة أشخاص شيئًا واحدًا.. كل منهم بأسلوبه فيبرعون جميعهم في ذلك؛ كأن يكتب أحدهم رواية كاملة عن طاولة مثلًا، إذ رآها كما لم يرها غيره، بل استطاع أن يستنبط منها -على جمودها- رموزًا حية، وأن يتجاوز هيئتها المادية إلى ما هو أبعد من ذلك..

قد تكون طاولة للكتابة أفنى أحدهم عمره جالسًا إليها يدون أفكاره.

قد تكون طاولة لعب لا يتزحزح عنها تحت وطأة العبث، أو اليأس.

قد تكون طاولة لتقديم ما لذ وطاب من الطعام والشراب يرضي بها شهوته الجشعة بعد عمر من الحرمان.. كنوع من الانتقام مثلًا.

قد تكون طاولة يتمترس خلفها موظف لم يعرف من الحياة سوى تلك الطاولة وما تحمله من ملفات ومذكرات إلى أن يموت فوقها.

وهذا مجرد مثال واحد على ملايين الأشياء التي منها تنبع حالات ومواقف وحكايات لم يسبق لأحد -ربما- أن تطرق إليها.

أذكر كيف انفرجت شفتاه بشكل مبهم، كنت أتوقع أن يصدر منه اعتراض على ما قيل فذاك طبعه، إلا أنه ظل على حاله، ثم اتسعت عيناه

الضيقتان قليلًا وردَّ واضعًا كفه على صدغه الأيمن:

- مفيدة، ما مصدر هذه الفكرة؟ أقصد الطاولة..
- لا أعلم.. لست أذكر.
- حاولي أن تتذكري من فضلك.

رد بنبرة حازمة وهادئة.

أخذ قلبي يدق بقوة، ولم أسمع حينها إلا نبضَه، أحسست بحرارة تتدفق نحو وجهي، كنت ألمح شفتيه تتحركان، ويد صديقنا تلوح أمام ناظري، لكني شعرت أني خارج الموقف كمراقب بعيد أو مشاهد لفيلم صامت..

لم أدرك بعدها أي شيطان تلبَّسني ونطق نيابة عني فأجبت دون تفكير بما سأقول:

- كانت قد كتبَت حولها صديقة لي، مجرد رؤوس أقلام.. بحسب ما أذكر.
- وماذا فعلت بما كتبت؟ هل طورت الفكرة مثلًا فحولتها إلى عمل أدبي محدد، أم ما زالت في طور ذلك؟
- لا شيء، لم تفعل بها أي شيء.
- بلهاء!
- لا، ليست كذلك البتة، إنها فتاة رزينة بحق.
- لعلها ليست موهوبة بالقدر الكافي لاستكمال ما بدأت، يحدث أن تخطر لأحدهم فكرة جيدة ثم يعيقه عدم امتلاكه المهارات

الأساسية الكفيلة بنقلها إلى المرحلة التالية.

- ليست مسألة مهارات وموهبة على الإطلاق.
- لماذا لم تبادر لفعل ذلك إذن؟ أعطيني تبريرًا واحدًا لما يمكن أن يعيق فكرة متفردة كهذه من رؤية النور؟!
- أظن.. أقصد أنها أخبرتني بها يومًا ونحن في خضم نقاش كهذا، وبعد مدة تُوفّيت.. نعم، هذا ما حصل بالضبط.
- مسكينة بحق! كانت لتكون أديبة نخبوية.
- صحيح..

بدأت البراكين في قلبي تخمد، فصاحبة الفكرة متوفاة الآن على أيّ حال، لا يوجد ما يستدعي القلق.

الموت، مبرر مثالي ومريح جدًّا، فلا يمكن لإنسان أن يصارع طموحه في القبر مثلًا، أو أن يسائله الآخرون بشأنه، أو أن يصفوه بالأبله كما فعل أندريه لتوه، فالموت يُنهي كل شيء.. بل يضفي على الأمر مسحة احترام لا تقبل الجدل.

وددت لو أضيف قائلةً إنها كانت تثق جدًّا بقدراتها، ولا تخجل من إظهار أفكارها للعلن دون أن تكترث بناقد قد يُحمّل كلماتها معانيَ لم تحملها، أو بجاهل يعدم التأويل فيها. لكن لا داعي لتزييف الحقائق، بل لا داعي أساسًا للحديث عنها أكثر طالما أنها ترقد بسلام -كما يفترض- وأرقد أنا بهدوء.

أخذ أندريه رشفة من كوب الزنجبيل وهو يحاول جاهدًا أن يلبس

وجهه تعابير متكلفة تشي بعدم اكتراثه الشديد للأمر، ثم أردف قائلًا:

- أيعرف غيرك بها؟
- بالطبع لا.
- بالطبع؟
- أأ.. أعتقد ذلك، فلم تعتد البوح بأفكارها لغيري.

لم يكن لديَّ أدنى شك بما كان يرمى إليه، خصوصًا مع انفراجة الشفتين الأولى التي باتت مفهومة الآن.

قلتها باستكانة وبشيء من الرضا، ففكرة كهذه لا بد أن ترى النور.

وها نحن اليوم، بعد أعوام، نجلس تكريمًا لأندريه ونشاهد نتاجه السينمائي الأول: الطاولة.

لا أستطيع أن أقول إنه قد طور من الفكرة كثيرًا، ذلك أني لم أتابع تفاصيل الفيلم بتمعن شديد لأحكم، ولكونه في نهاية المطاف مخرجًا وليس كاتب سيناريو، أما اسم الكاتب فوُضع في الشارة بأحرف رمزية: المرحومة د. ن.

إني أتأرجح الآن كبندول الساعة بين الشعور ونقيضه.. بين الرضا والندم.. بين الحزن والفرح تجاه فكرة ظلّت مقموعة ثم برزت فجأة بروزًا غير عادي، بين رغبتي الحقيقية في أن أكون «مفيدة» أمام نفسي والجميع، والشعور بالأمان الذي يغمر كل خلية في جسدي حين أكتفي بأن أكون د. ن. أمامهم.

ينتهي الفيلم، ويتزاحم الجمهور للخروج من الصالة واللحاق بأندريه

للانهيال عليه بالتهنئات وشتى عبارات المديح والتشجيع.

أحاول أن أخرج أنا الأخرى، إلا أني أجد نفسي عاجزة عن الحراك، يرضيني لو بقيت هنا عمرًا كاملًا.. هنالك ما يحرضني على معاقبة نفسي، لربما لهذا رفض جسدي التحرك، فهو يدرك جدية هذه الوساوس، ولعله أراد أن يحميني منها بالجلوس حتى أهدأ.

لكن لا يبدو أنني سأهدأ.. هنالك انتفاضة بداخلي، وشيء فيّ يرفضني ويخبرني أني أخطر من أن أتمسك بي لوقت أطول!

لا بد لجزء مني أن يغادرني، فأنا أُشكّل خطرًا على نفسي إن لم أرمِ أحمالي الثقيلة القديمة ورائي.. كفى.

- عفوًا، هل ستظلين لمشاهدة الفيلم التالي؟
- أظن، لست متأكدة..

أضاف وهو يهمُّ بالجلوس:

- بالمناسبة، رأيتك بضع مرات بصحبة أندريه رفيقي منذ الجامعة.. كم أصبح مبدعًا!
- صحيح.

أهز رأسي وارتدي تعابير وجه أندريه المتكلفة بعدم الاكتراث.

تتردد كلمة «كفى» بلا توقف في رأسي، وأشعر بنابض على وشك الانفلات داخل روحي معلنًا خلاصي الأبدي، ومع كل ثانية تمر يقترب أوان انفلاته أكثر فأكثر.

- لم أعرفك بنفسي؛ نزيه، كاتب روائي.

يبتسم ابتسامة خفيفة تنمُّ عن تواضع.

- مفيدة..
- ما هو الفيلم التالي بحسب معلوماتك؟
- أظن أنه فيلم الطريق (La Strada) لفيلّيني، بحسب ما جاء في جدول العرض.
- عرفته، فيلم فريد من نوعه فعلًا. أليس كذلك؟
- نعم، أحب الأعمال التي تتداخل فيها عوالم النفس المتأذية من الداخل بالمحيط الخارجي الذي يعمّه التفاؤل والفرح والاستقرار والتشتت كالسيرك المتنقل في الفيلم.
- صحيح لكن لا أذكر شخصيًّا عملًا بعينه يحمل تلك الرمزية والمزيج الذي تحدثت عنه، إلا فيلم فيلّيني هذا..

أخذتني الحماسة بعض الشي ورحت أشرح له عن لاعبة الأكروبات التي كانت تضيء سماء السيرك كنجمة، وتدب فور دخولها الحلبة طاقة عجيبة في الأرجاء، إلا أن روحها، على نقيض جسدها، خلت من المرونة والحيوية، فكانت أثقل بكثير من الخفة التي تبدو عليها من الخارج.

- أي فيلم هذا؟ سأشاهده اليوم دون تردد، أعطني اسمه أو اسم المخرج فقط..

تعثرت الكلمات على شفتيّ قبل أن أرد:

- لا أعتقد أنه فيلم.
- رواية؟ مسرحية؟ لا يهم، أود الاطلاع على القصة أكثر.

- أعتقد أن تفكيري مشتت بعض الشيء، القصة.. مجرد حلم!

تذكرت ذلك الآن، نعم، لقد رأيتها في المنام.

نهضتُ مسرعةً وقد هدأت قليلًا.

المنام.. لا أحد يحاسبك أو يرهقك بالأسئلة إن استيقظت ولم تجعل منه واقعًا.

دعاء خاص

- أهذه صورته؟
- نعم، أشتاق إليه كثيرًا، كيف له أن يغيب كل هذا الوقت ويكون بقسوة القلب هذه؟! لكني أحبه..

لمَ لا يأتي غدًا مثلا؟! ليس حنونًا كما قيل لي.

ردت وهي تأخذ قضمة من لوح الحلوى بغضب واستنفار.

- عادي، أنا مثلك، إنني أصلي وأدعو كل ليلة أن أراه في اليوم التالي، وحين لا أراه أعود وأصلي مجددًا لأراه في اليوم الذي يلي اليوم التالي.. وأخص بدعائي أن أذهب أنا إليه.
- لا، يكفي، أريد أن أراه.. أن ألعب معه.. و.. وأحتضنه طويلًا، أريد أن أريه رسوماتي.. أتعلمين أنه يهوى الرسم مثلي؟ انظري إلى الصورة مجددًا، يشبهني كثيرًا، يمتلك غمازةً مثل غمازتي.

لكنه ليس جميلًا.. قبيح، قبيح جدًّا حين لا يأتي!!

- يقولون إنهم مجبرون..
- أعلم هذا، وأعلم أن الحرب سيئة، وأنه يقف في صفوف الطيبين ضد الأشرار، لكني أريده أن يعود الآن! لقد أدى دوره. ماذا لو لم ينوِ أولئك الأشرار التوقف عما يفعلون أبدًا؟ أسيظل هناك!
- معك حق.. وأبي أيضًا مع الطيبين.

- كيف عرفت؟
- أمي أخبرتني.. وأنت؟
- أخبرني هو على الهاتف.
- هو؟؟ محظوظة..
- سأبدأ عامًا دراسيًّا جديدًا ولم يعد بعد.. يا لله! لكن، أأُطلعكِ على سر؟
- أجل..
- أخبرتني أمي أنه سيأتي في العطلة الصيفية، وأنا أصدقها، أمي لا تكذب..

تردف قائلة بابتسامة عريضة وعينين متلألئتين تعكسان خيالاتها الخصبة:

- سأستقبله في المطار، سأحضر له الكثير من البالونات، وكل الأطباق التي يحبها، سنحضرها كلها معنا.
- إذن سيأتي قريبًا..

ترد صديقتها وهي تأخذ منها ما تبقى من لوح الحلوى وكأنها لا تستحق نعمًا ومزايا أكثر.

- لكن لا يعني هذا أني لم أعد غاضبةً منه، كان بإمكانه أن يأتي مرةً أو اثنتين لزيارتي.. ولو لساعات.

تستعيد لوح الحلوى بحزم.

- على الأقل سيأتي في الصيف!!

ترد بعبرة خانقة، وغصة ثقيلة تستقر في سقف حنجرتها.. ثم تتابع قائلةً:

- حسنًا.. سأعود اليوم وأدعو أكثر من كل يوم أن أذهب إليه.
- أن تذهبي.. أنت؟ لماذا؟

ترد بعد أن افتر ثغرها الصغير عن ابتسامة مطمئنة:

- أولًا، أخبرتني أمي أن أبي قد ذهب إلى مكان بعيد وجميل جدًّا.. هنالك أشرار وطيبون أيضًا، لكنه مع الطيبين. أمي هي الأخرى يستحيل أن تكذب.

وثانيًا..

(تتكئ بمرفقيها على ركبتيها.. تصمت لثوانٍ وترد بذات الغصة الأولى)

في المكان الجميل لا يملكون هواتفَ.. فلن نعرف لعودته موعدًا.

تطالعها صديقتها لثوان.. ثم تعرض عليها آخر قطعة من لوح الحلوى.

بطولة

- لا أدعي أني أمتلك الحل، ولا أنتقد غيري.. أتحدث عن نفسي، وإن تحدثت عن البقية فأعتبر الأمر تفصيلًا ثانويًّا.
- لكن يا صابر اسمح لي، ماذا تقصد بقولك إنك استهلكت كل المشاعر المحتملة، وإنه لم يعد هنالك جديد؟
- إني استهلكت جميع المشاعر، ولم يعد هنالك جديد! ليس لدي أي تفسير مرضٍ أكثر لك كمستمع.
- لكني أكثر من ذلك، أنا صديقك وإن باعدت بيننا الأيام، ويهمني أن أعرف سبب ما تمر به بشكل عام، وسبب انسحابك من الشراكة على هذا النحو المبتور بشكل أخص.. إن كنت تعاني من مشكلة ما فأطلعني عليها من فضلك، وسأكون سندًا لك.
- أشكرك، لكنَّ الأمر ليس سهلًا كما تظن..
- اشرح لي أكثر.
- من الصعب أن تقدم شروحات لابتعادك عن مضمار قديم قد دخله الآخرون لتوهم، وعالم اكتفيت منه ومللت في حين أخذ غيرك ينخرط فيه بكل حماسة.. عالم واحد يا رجل يصعب الحديث عنه، ما بالك لو كانت عوالم؟

يصمت لبرهة متفحصًا أظافره النقية ثم يتابع:

- وكأنك ختمت مراحل عديدة في واحدة، وفرغت من دورة إنسانية لا يزال غيرك يسعى في أول أطوارها.. فأخليت مكانك على الساحة وجلست تراقب من بعيد..

ينظر إلى زاوية بعيدة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم تلبث أن اختفت ليحل محلها تجهم مربك، ونظرة أشد إرباكًا لجليسه فيردف قائلًا:

- ليأتي بعدها من لا يعلم من أبعاد القضية إلا ظاهرها، فيمد لك يد العون وجملة من النصائح ظنًّا منه أنك أقل عزمًا من أن تسير على خطى الآخرين والسابقين، جاهلًا تمامًا كونها الشعرة الدقيقة الفاصلة ما بين الانسحاب على ضعفه.. وترك المضمار للهواة على قوته!
- أين القوة في ترك كل ما تعبت لأجله؟
- أن تلغي طوعًا واختيارًا كل عظيم صنعته على العلن، فتخمد هالة المجد التي تحيط بك، هو أمر نبيل جدًّا.. خطوة تعيدك إلى البداية التي منها وفيها تكتشف مسارًا مختلفًا تمامًا، ولو كان أقل إعلاءً لصيتك.. طريقًا أخرى لربما عميت أبصارك عنها تحت أضواء خادعة. وقد لا يكون هنالك طريق آخر، لكنك تكتشف في هذه الحالة شيئًا أعظم؛ كم أنت إنسان زاهد! لا تتعلق بزينة الدنيا وبهارجها! ولا بنزعة الأفضلية البشرية، إنسان لا يتعلق بشيء،

بالتالي لا يهزه شيء، ولا يخلق في المقابل وجود الشيء هذا منه كائنًا آخرَ ووحشًا خفيًّا!

يعدل ربطة عنقه الحريرية.

- تابع حديثك من فضلك..

- يا رجل، هذه قضية أخرى مؤرقة بحد ذاتها.. كيف تساير عالما يستلزم منك الحديث فالحديث ثم الحديث إلى أجل غير مسمى. حتى حين لا ترغب في التفوه بحرف، ستضطر بطبيعة الواقع الذي يفرض ذاته على رغبتك اللامقبولة هذه أن تجامل شخصًا أو اثنين وتتحدث! كما نفعل الآن.

يبتسم جليسه، ثم يرد بنبرة حادة وقد نفد صبره وازداد قلقه:

- يا صابر! دعنا من كلام الفلسفة الذي لا ينجي بقدر ما يُهلك صاحبه.

ما الذي ينقصك لتصل بك الأمور إلى هذا الحد؟؟

يضرب سطح الطاولة بكفه، ثم يرد بصوت أعلى:

- هنا «مربط الفرس»، انظر حولك..

يمد ذراعيه باسطًا كفيه في الهواء

- انظر جيدًا، لدي كل شيء.. زوجة رائعة، طفل معافى وذكي.. (يختلج صدره برعشات سريعة، ويعيد الجملة) طفل جميل وذكي، ثروة لا تأكلها النيران، أملاك، سيارات، خيول، خدم، أقارب وأصدقاء أوفياء مثلك.. كل شيء.

لدي الحياة، ولا أريدها!

يمد ذراعيه مجددًا في الهواء، وبمستوى أعلى، ثم يشخص ببصره إلى السماء:

- إلى متى؟ دوامة..

يقبض يده ويترك الإصبع الشاهد يتحرك بحركات دائرية لثوان معدودة ويتابع:

- هي.. ترتدي أجمل ما لديها. ترش العطر، وتضع مساحيق التجميل، وتصفف شعرها بعناية، تقف أمام المرآة لساعات أحيانًا حتى تبدو أخيرًا بالمظهر الذي يدل على الذوق الرفيع والرقي الذي لا أعلم متى أصبح ماديًّا. هو.. يقف أمام المرآة أيضًا للأسباب نفسها، ويحاول بشتى الطرق وبتحاذق لا يوصف أن يظهر بمظهر الرجل النبيل القوي.

نسخ كثيرة عنها وعنه.

نخرج في حشود تزاحم الهواء، نجوب الشوارع ونبذل جهودًا اجتماعيةً في التعارف والحديث عن طموحاتنا ومحاولاتنا العصامية، وإنجازاتنا.. نُفرغ ذواتنا كأبطال، وشخصيات متفردة، بينما نجلس إلى طاولات المطاعم الفاخرة، والمقاهي الشعبية، ومكاتب العمل، وفي الطرقات، وعلى صفحات التواصل الاجتماعية، وفي أي مكان وزمان تتاح لنا فيه فرصة الثرثرة عن أنفسنا ليظهر كلٌّ منا بصورة عالية الجودة، كاشفًا منها ما يريد فقط بمهارة وحرفية، دون أن يبدو متكلفًا، أو مبتذلًا..

دون أن يفصح عن رغبته السرية بإبهار الطرف المقابل وزيادة رصيد الاعتزاز الذاتي.. ننطلق بالاتجاهات كافة وفي مختلف الأوقات، باحثين عن كل ما لا يرضينا في نهاية اليوم، عن فراغ يبدو متخمًا بالمنطق ممتلئًا بالمعنى! هه.. عن فقاعة يستحيل الإمساك بها..

هذا نحن، ننشطر كل نهار إلى أنصاف لا متناهية داخل دوامة ساخرة من الظاهر والباطن.. تسألني كيف استهلكت كل الرغبات والمشاعر؟ إلا هذا الملل، يأبى أن يفارقني مهما انشغلت، ورغبة واحدة في إنهائه.

- طبيعة الحياة يا صديقي.. إننا نفعل كل ما ذكرت لتوك كي لا نشعر «جدًّا» بهذا الملل.. كي نخفف من وطأته.. مفارقة ساخرة نعم، لكنها حقيقة!

- أرأيت لماذا يتعبني الحديث؟ التكرار! لقد أخبرتك في بداية جلستنا هذه أنني أكثر من يعرف طباع الإنسان الفطرية، ولا أنتقد لغاية الانتقاد، ولا أمتلك الحل الذي سيخلّص البشرية من العبث.. أتكلم عن نفسي وما تتأثر به من غيري.. اللهم نفسي.

وها أنا أعتاش على الابتعاد والتجاوز إلى أن تأتي للحظة المناسبة.. لا أعلم متى ستأتي، ولكن أنتظر.

- أتتحدث عن الموت يا صابر؟

رد جليسه وقد امتقع وجهه ثم أضاف بحدة:

- أنت؟ ماذا تركت لأصحاب الأمراض والأسقام التي لا يرجى شفاؤها ولا طائل لهم بأمل جديد؟ ماذا يقول ضحايا الفقر المدقع

ممن لا يجدون قوت يومهم ولا يعلمون ماذا يخبئ الغد لهم ولأطفالهم من أسباب الهلاك؟

نهض من كرسيه وتابع بغضب. بدا أن كل عضلات وجهه تتحد لتشارك به:

- ماذا عن أولئك الذين خذلتهم الظروف مرةً تلو الأخرى ولم تُبق لهم حتى الخشية من خسائر أكبر؟ لا تنزعج إن أخبرتك أني أشعر بالاشمئزاز منك حاليًّا.

يشيح صابر بوجهه عن جليسه، يشعل لفافةً من السيجار الكوبي ويرد بهدوء:

- لن تفهم ببساطة.. سبق وحدثتك عن القوة والضعف، أليس كذلك؟ إن كل الفئات التي ذكرتها لتوك هي إما من الضعفاء وإما من المستضعفين، فإنَّ رغبتهم، أو من يرغب منهم، في مغادرة الحياة، أمر بديهي وقضية مفروغ منها في معظم الأحيان.

يثب هو الآخر من كرسيه، وينحني لتفقد الأزهار المجاورة لمقعده ويضيف قائلًا:

- إن رغبتي تستند إلى موقف قوة لا ضعف، وشتان ما بينهما! ولو أردنا لها أن تكون ضعفًا، فأنا ضحية الاكتفاء!
- ماذا عن ابنك يا صابر؟
- ما به؟
- ألا يحتاجك؟

- يحتاج مالي.. وكله له.

يضرب جليسه كفًا بكف وقد اكفهر وجهه وراح يتمتم:

- عجيب أمرك.. عجيب.

يشبك صابر يديه خلف ظهره وهو يذرع أرض حديقة الفيلا ويقول:

- أن يصبح المرء نكرة، فضيلة يسدي بها لذاته معروفًا في بعض الأحيان؛ فالشهرة بغيضة.. وعلى ذكر الفضيلة، يفضل أن تغادر يا صديقي، فقد أتت..

- من؟؟

- اللحظة.

يخرج من جيبه مسدسًا ويجعل فوهته في جوف فمه.

تتوقف الكاميرات عن التصوير بعد أن يدوي صوت المخرج مناديًا: «كَـــت».

يسأل علي أحد العاملين فورًا عن الساعة فيجيب:

- إنها الثانية عشرو وربع..

يُسارع لتبديل ثياب الشخصية التي أداها للتو وهو يفكر بأشياء كثيرة منها ثمن ربطة العنق الحريرية التي كان يرتديها، ينتعل حذاءه الرياضي، يرتدي ساعة اليد، ويغادر موقع التصوير.

***

وعلى ناصية الشارع..

تتباطأ بقربه سيارة بينما يصدر من نافذتها المظللة والمفتوحة قليلًا صوت رجل:

- علي!! «إلى أين وجهتك؟».

ثوانيَ ويتعرف إلى وجه زميله في المشهد السابق، فيرد:

- إلى أقرب محطة لانتظار الحافلات.

- اركب يا رجل.. لا تمر الحافلات من أي مكان في هذه المنطقة.

ينظر علي إلى ساعة يده، ويركب دون تردد. وبعد أن استفسر زميله عن وجهته خاطبه قائلًا:

- مع أن دورك لا يزيد على مشهدين أو ثلاثة، ورغم أنه أول عمل سينمائي تشارك به، إلا أني أبشرك يا علي بأدوار البطولة منذ الآن، تذكر هذا جيدًا! إنك محترف لدرجة أن أحدًا لم يُعلّق على الكلمة التي خرجتَ بها على النص..

- أي كلمة؟

- حين قلت: «طفل معاق».

- آه صحيح.. لكنها لا تقدم ولا تؤخر.. فلِمَ لا يكون معاقًا؟

ساد بينهما صمت طويل إلى أن أوشكا على الوصول فبادر علي قائلًا:

- شكرًا لك، بالمناسبة، بما أن دورك انتهى قد لا نلتقي مجددًا، لذا سأعطيك رقمي، وإن علمتَ عن جهة تطلب ممثلين: كومبارس ثانوي لا يهم.. أفلام، مسلسلات، مسرح، برامج أطفال.. أي شيء أعلمني بذلك إن أمكن.

- بالتأكيد، تشرفت بلقائك.

***

- كيف حال الرجل الخارق اليوم؟

سأل بابتسامة واسعة.

- متألم.

تشده زوجته من قميصه نحو الباب وتهمس في أذنه:

- هل تقاضيت أجرًا على المشهد؟

- ليس بعد، بقي لي مشهد أخير، وبعدها يُصرف الشيك.

يبتسم لابنه مجددًا، ويعود ليهمس في أذن زوجته:

- المشكلة أن المبلغ قليل، سواء تقاضيته اليوم أو غير اليوم.

تزمُّ شفتيها ويتكدر وجهها وهي تنظر لطفلها الذي خرج صباح اليوم من غرفة العمليات.

- كيف سندفع التكاليف كاملة؟ لم يبق سوى..

تمد يدها تتحسس خاتمًا في إصبعها، فيضربها على يدها ضربةً خفيفة ويهمس قائلًا:

- الله كبير.

- لم يتبقَ غيره، حتى أثاث البيت يا علي.. بعنا منه كل ما يباع لأجل هذا الولد وعلاجاته.

ترد مع شهقات متتالية، فيُسند رأسها فوق كتفه، يخبئ وجهها بذراعه ويبتسم لطفله مجددًا.

- سيد علي، يمكنك مرافقتي لقسم المحاسبة لاستكمال الإجراءات حتى نتمكن من صرف الأدوية اللازمة.

يتبع الممرضة كمن يُساق إلى مشنقته حائرًا ما بين التسليم بالأمر الواقع أو التهرب منه. ويحبس الأنات الثقيلة في صدره الذي يوشك على الانفجار، ويتمتم وهو يمشي في ممر ضيق بارد وكئيب باتجاه مشنقته المفترضة:

- يحتاج مالي، وكله له... أن يصبح المرء نكرة فضيلة يسدي بها لنفسه معروفًا.. طفل معافى وذكي..
- عفوًا؟

تدير الممرضة رأسها للخلف مُتسائلةً.

- لا شيء.. أتدرب على مشهد أؤديه.
- آها ممثل! جميل.. وما دورك؟

يقف أمام المحاسب باتزان وهدوء مصطنعَين، يبتلع غصة ترتكز في رأس حلقه، ينظر للممرضة ويجيب:

- بطل.. أنا بطل.

لحظة مجد

رفع رأسه، نفخ صدره وأرخى جبهته بعد أن وقف مُنتصب القامة، وانسابت النغمات والنوتات واحدة تلو الأخرى من حنجرته الألماسية بنبرة صوت رنانة وقابلة للتطويع.

كيف لا وهو مغني التينور العظيم، بطل مسارح الأوبرا، ذو الحضور اللافت والجاذبية الشديدة؟!

تزاحم الشغف في صدره وهو يؤدي رائعة بوتشيني الأخيرة (Nessun dorma)، فراح يستميل جمهوره الغفير، يحرك مشاعر الحاضرين، ويستثير حواسهم، وكأنهم دمى خشبيّة تتلقّفها نغماته يمنةً ويسرة.

انهالت عليه هتافات المديح من كل ناحية، وقوبل أداؤه البطولي بعاصفة من التصفيق الذي تواصل لدقيقتين كاملتين دونما انقطاع. حاول أن يخفي غرغرة الدموع في عينيه، ونبضات الاعتزاز التي تهيّأ له أن جسده بأكمله راح يهتز لها ويرتجف، فلم يسبق له أن أدى في حياته أداءً أوبراليًّا كما الآن، شعر أن السنوات التي كدّ واجتهد فيها عاكفًا على تدريب صوته وصقل حنجرته لتصبح على ما هي عليه لم تذهب سُدى، وكلّ أحلام اليقظة التي لازمته منذ طفولته حتى شبابه قد تجسّدت أمامه مُكثّفةً في لحظة مجد يعيشها اليوم..

تصفيق الجمهور، والإضاءة، والمسرح الضخم، والكاميرات التي يبدو أنّها عشقته هي الأخرى، كل شيء! كل شيء تمامًا كما حلم وظل يحلم حتى الساعة.

فكّر كم أن الأحلام عذبة، وكم أن تحقيقها أشد عذوبة.. بل يفوق العذوبة في وصفه.

ذاق الكثيرون ولو لمرة في حياتهم طعم النجاح، ولكن النجاحات الصغيرة والمتقطعة مختلفة تمامًا عما يحدث الآن.

فالكثيرون أيضًا لا يعرفون معنى انتظار لحظة واحدة لسنوات طويلة، سنوات أخذت من عمرك الكثير، الكثير من الحماس، والكثير من الشكوك والهواجس، والكثير من سبل التحفيز، ثم الكثير من الإخفاقات والإحباطات، وبعدها الكثير من محاولات الوقوف من جديد، فالأمل والإصرار، وهكذا..

إنها متاهة تقف على مخرجها بنشوة بالغة، كوقفة محارب إغريقي وسط الساحة؛ الكل يراقبك، ويشجعك، ويصفق لك، تجد نفسك فجأة بطلًا حقيقيًّا لكل الأفلام التي طالما قمت بتأليفها وتصويرها بتفاصيلها في مخيلتك.. يا لها من استجابة دعاء لطالما تردد على لسانك..

وهي الحل لمعادلة لطالما ظننت أنها لا تُحل لعدة أسباب منها احتمالية أن تكون المعادلة مكتوبة بشكل خاطئ منذ البدء، تجد ذاتك فجأة النسخة الحقيقية لكل ما سبق، في لحظات كتلك لا تستطيع التعبير عما بداخلك تمامًا، أنت أيضًا تراقب كما يراقبون.. تراقب الرضا وهو

يتغلغل بين ذرات الهواء ليدخل أنفاسك مالئًا إياك به، تراقب انتصارك يرتسم على وجوه الآخرين، فتشعر بدغدغة بين ثنايا قلبك كفراشات تتراقص بخفة وسرعة، مشاعر كثيرة تجر بعضها البعض إلى الحد الذي يتركك مذهولًا، وقد تبدو أبلهَ بعض الشيء، لا يكون بمقدورك حينها إلا القيام بأمر من اثنين: التبسم، أو البكاء.. أو كليهما معًا.

لم يستطع أن يخفي كل ما فكر به أكثر، فأشاح بوجهه، ومسح بضعَ قطرات فرّت من عينيه رغم كل المحاولات لحبسها؛ فأحيانًا لا تكون الدموع قابلة للتطويع هي الأخرى، أحس بشيء من الإحراج إثر سلوكه الذي ظن أنه طفولي إلى حد ما، ولكنّه واسى نفسه بحقيقة أن كلًا منا يعود طفلًا عند ذروة الفرح.. أو الخيبة.

وفي الثواني التي استطاع أن يتمالك نفسه فيها ويأخذ شهيقًا عميقًا ليواصل أداءه، سمع صوتًا يشبه قرع الباب..

- بافاروتي!

هلّا أسرعت قليلًا، تنقصنا (حفاظات) للولد.

مدّ ذراعه نحو الرف أسفل المرآة، أطفأ تطبيق الهاتف الذي يُصدر صوت تصفيق بين الفينة والأخرى.

أغلق خرطوم المياه، وخرج من غرفة «الدوش» مُتأزّرًا منشفته، ملبيًا نداء الأبوة الذي لا ينتظر..

وقفة قد تطول

وشاح العنق الأبيض، أم الأزرق، أم الرمادي؟

على هذا النحو تبدأ معظم صباحاتها، حريصة كل الحرص على الظهور بمظهر رسمي وأنيق يشي بالجدية، والمسؤولية، والقوة، الصفات الثلاث التي تكابد للحفاظ عليها يومًا بعد يوم، والتي تتطلبها طبيعة عملها في إحدى كبرى السفارات في المدينة.

امرأة طموحة وذات روح حيوية، أو بالأحرى ما تزال حيوية وطموحة في نهايات الأربعين من عمرها، تمتلك معظم الصفات التي تجعل نساء الأرض يحسدنها، حسنة الوجه (حين لا تقطب جبينها كما تفعل معظم الوقت أثناء العمل) ذات قوام رشيق لولا تقوّس كتفيها لكثرة جلوسها أمام الحاسوب.

خرجت من بيتها بعد أن تهيأت واستعدت ليوم عمل جديد، ركبت سيارتها، وانطلقت.

حين وصلت مبنى السفارة انغمست في عملها، فلم ترفع رأسها عن الملفات إلا لتتلقى المكالمات الهاتفية، أو لتحملق في شاشة الحاسوب الماثل أمامها، ثم تعود لتراجع التقارير.

مرّت ساعات وهي على الحال نفسها حتى تنبهت إلى حاجتها لكوب قهوة ينقذها ممّا هي فيه، ارتأت أن تنزل إلى الكافتيريا الخارجية بنفسها

لأخذه علّها تحرك جسدها المتيبّس قليلًا.

أخذت قهوتها وغاصت بين جموع الموظفين الخارجين في فترة الاستراحة والمراجعين المغادرين، وما أكثر الوجوه التي كانت تغدو وتروح أمامها بسرعة، ووسط ازدحام شديد!

وبينما هي تتدرج بأول رشفة من القهوة وتذكر نفسها بأن كوبًا كهذا هو نعمة حقيقية ومخلّص مؤقت من شتى أنواع العذابات ومنها العمل المتواصل، لكزتها إحداهن من كتفها، ثم تمسمرت أمامها مبديةً ابتسامةً عريضةً وإيماءة رأس كمن ينتظر المبادرة بالتحية من الطرف المقابل. تفحصتها حياة بنظرات بطيئة بدءًا بخصلات الشعر المموجة المتطايرة من أعلى رأسها، وانتهاءً بالأرض التي تقف عليها، ونظرة أخيرة أكيدة إلى وجهها حتى لا تتسرع برد فعلها.

- هي..

قالت في نفسها عن الواقفة أمامها التي لم تتغير سوى في نمط هندامها الذي بدا أبسط بكثير مما كان عليه في الماضي، وشعرها الذي صار أقصر بكثير أيضًا، وبمظهر صحي وحيوي أكثر.

- فرح؟!

بادرت حياة بصوت يملؤه الاستغراب والانشراح في آن.

- نعم فرح! حياة.. ما أسعدني برؤيتك!! كيف حالك؟ أتعملين هنا؟

سألتها وقد ألقت نظرة خاطفة على زيها الرسمي.

- نعم، هنا.

أجابت حياة وبادرت بمعانقة صديقة أيام الدراسة.

أضافت فرح سائلة:

- وما هو مجال عملك بالضبط؟

- عملت هنا لأكثر من عشرة أعوام، إدارية ومشرفة.

أجابت وتعابير وجهها تشاركها الزهو والشعور بالاعتزاز، وأخذت تشرح بإسهاب عن سنوات عملها، وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه، وعلاقتها بالسفير وعائلته، وغير ذلك، إلى أن تنبهت لكونها لم تسأل صديقتها سؤالًا واحدًا في المقابل، عنها أو عن سبب وجودها في المبنى، فتداركت الأمر وأضافت على الفور:

- صحيح.. أخبريني عنك أنت.

ضحكت فرح ضحكة موجزة، ثم أجابت:

- من أين سأبدأ يا حياة؟! لقد مرت أعوام كثيرة..

- أما زلت تعملين في التصميم؟

- إلى حد ما، فبعد أن تركت الدار التي كنا نعمل بها معًا آثرت أن أظل في مجال التصميم المستقل حرةً قدر المستطاع، رغم تذبذب حالة هذا النوع من العمل كما تعلمين، لكن امرأة مثلي يا حياة لا تطيق قيدًا، ولا تحتمل المكوث على أرض واحدة مطولًا، سافرت كثيرًا وعملت في أكثر من مدينة، كنت كلما ادخرت مبلغًا بسيطًا من أعمال حرة مؤقتة، نشرت جناحيَّ وطرت مجددًا، وهكذا..

لطالما شعرت بغبطة تجاه من يُقدمون على مغامرات كهذه، وكنت أحسبهم متهورين في الوقت ذاته.. إلا أن رأيي اختلف كليًّا، فالأشياء التي اكتسبتها من تجربة، بل تجارب كهذه، أهم وأعظم عندي من تلك التي خفت بشأنها.

قابلت أصدقاء كثيرين، وقابلت الحب أيضًا.. وهذا باختصار شديد.

رجعت منذ بضعة أشهر، ولم أعرف كيف أصل إليك وقد غيّرت رقم هاتفك القديم، بحثت عنك كثيرًا في مواقع التواصل الاجتماعي فلم أجدك في أي منها، سألت الأخريات عنك، ولا يعرفن شيئًا كذلك.

- الانشغال.

ردت حياة باقتضاب، وتابعت فرح قائلة:

- قبل أسبوع تقريبًا صادف أن مررت من حينا القديم، رحت أمشي بين أزقته، كم تذكرتك والأخريات! واسترجعت أوقاتنا الجميلة، جلست على المقعد الخشبي الذي كنا نتشاطر الجلوس عليه وثالثتنا نور، ونظل لساعات نضحك ونتباهى بموهبة تقليد حركات الآخرين، خاصة أساتذتنا ومعلماتنا، ثم نأكل شطائر الشاورما التي لم أذق مثل طعمها حتى اليوم..

أكملت حياة حديث صديقتها ضاحكةً، وقد أخذ حاجباها المنعقدان بالانفراج تدريجيًّا:

- وأذكر تمامًا إعجابك بذاك الذي كان يعد الشطائر في المطعم، وهو بدوره كان ينتظر قدومك كل يوم.. أوه! وذاك المقهى الخشبي..

- الذي كان ملكًا لجد نور!

عدلت حياة وضعية كتفيها المنكفئين، وأجابت:

- نعم هو، كنا نجلس فيه ككبار السن نشرب الشاي بالياسمين، ونلعب طاولة الزهر، وينتهي الأمر بالخاسرة بتنفيذ شرط محرج ومضحك، أذكر أنكن قمتن بإجباري مرةً على سؤال رواد المقهى فردًا فردًا إن كان أحدهم يحمل قطعة حلوى في جيبه.

تضحك بشدة وتتابع:

- أيام!

- صدقيني، أثناء وجودي في تلك الأماكن كان هناك شعور عذب لا يسعني وصفه، يحيط بي كفقاعة وكأن الزمن قد توقف عند تلك الأيام، فأرانا من بعيد جالسات هناك.

- تذكرت شيئًا آخرَ!

أضافت حياة بسرعة:

- أتذكرين في موسم الثلج كيف كنا نذهب للانحدار المحاذي للمقهى؟ نجلس على صوانٍ حديدية ثم ننزلق بسرعة نحو الأسفل ونصرخ عاليًا، وفي كل مرة يطل أبو سليمان من نافذة منزله ويصيح: «انتبهن يا بنات! خطر يا بنات!».. أما نور فكانت قبل أن تبدأ عملية الانزلاق تتنبأ بالأحداث فتردد جملة أبي سليمان قبل ثوانٍ من ظهوره.

ضحكتا حتى أثارتا انتباه معظم الموجودين في القاعة. صمتتا بعدها لبرهة تتأملان أشياء غير محددة، ثم تابعت حياة قائلة:

- لقد كنا غير مباليات بشيء، لا تعكر صفو أيامنا أخبار الحاضر ولا هموم المستقبل ولا كنا نحنّ لماضٍ، أردنا أن نلهو ونضحك قدر المستطاع.. كنا حكيمات فعلًا.

ظلت حياة تشارك فرح أولًا بأول كل ذكرى من الذكريات الجميلة التي بدا أنها على استعداد لدفع عمرها المتبقي ثمنًا لاستعادة شيء منها، بأماكنها والمشاعر التي رافقتها..

والأخرى تحكي مغامرات جديدة لها، وأخرى غير مدروسة بدقة تنوي خوضها كطير طليق لا يطلب من الدنيا إلا هواءها وسماءها، ثم تعود حياة لتستذكر أيام الصبا وتضحك.

- عزيزتي، لقد حان موعدنا.
- بالطبع عزيزي، أمهلني أقل من دقيقة.

تصافحتا وتودعتا بعد أن بادلت كل منهما الأخرى رقم هاتفها.

مشت حياة لا إراديًّا خلف فرح وشريكها. ثم وقفت تراقب صديقتها وهي تدخل المصعد. فكت وشاحها الرمادي الأنيق وتركته ينسدل من بين أصابعها.

جمدت في مكانها تحدق في المصعد من وراء الباب الزجاجي، حائرةً إلى أين تتوجه بعد أن تشرب قهوتها التي أصبحت بلا طعم!

خلاص

- مرحبًا عزيزتي.....
- لا تردّي التحية، أتفهم الأمر، أعرف أنك مستاءة قليلًا.

اشتقت لك، وليس شعورًا بالذنب كما قد يتبادر لذهنك.. لا، بل هو اشتياق حقيقي، كما أحضرت لك هديّة بلا مناسبة.

يضحك ضحكةً خاطفةً، ويتلفّت يمنةً ويسرةً، ثمّ يُتابع قائلًا:

- بلا مناسبة، لطالما تشاجرنا بسبب هاتين الكلمتين، لكني عنيد وأعيد الكرّة، لقد كنتِ تفترضين سيناريوهات مُريبة ومعقدة داخل رأسك الصغير الجميل كلما بادرت بإحضار هديّة بلا مناسبة.

أعلم أن كلمة (تفترضين) تزعجك قليلًا أيضًا، فبصراحة لقد أصبتِ في افتراضاتك تلك عدّة مرات، كانت شكوكك في بعض الأحيان، بعضها يا عزيزتي، في محلّها، وكنت من خلال الهدايا أحاول إخفاء أثر ذنب اقترفته بحق نفسي، وبحقك، وبحق زواجنا المقدّس.. خصوصًا في سنواته الأولى، ولكن شيطاني كان أشد سطوة على نفسي مني، ولن تصدقيني إن أعلمتك بمدى ندمي على كل ما سبق، لكن ذلك أصبح من الماضي، ولا يهم، ما يهمّ الآن هو أن هذه الهدية ليست كسابقاتها.

يبتسم ويضيف قائلاً:

ولا أحاول أن أخفي وراءها أي «داهية» على حد وصفك للحالة في الماضي. تخيّلي، في أوج غضبك كانت تضحكني تعابيرك وطريقة وصفك للأشياء.. آهِ يا لروحك الساخرة الجميلة.

فلنعد إلى محور حديثنا الرئيسي، صدقيني إن المغزى والدافع من وراء هذه الهديّة نبيل جدًّا.. مهلًا.. سأطلعك على ما حدث.

إني، وفي اللحظات الفاصلة ما بين اقترافي الذنب وانسحابي، تذكّرت ابتسامتك النورانيّة، تذكّرت مشاعرك المرهفة والجبارة في واحد، تذكرت قلبك الذي سرعان ما ينكسر ثم يرمم ذاته حين يستشعر انكساري وندمي الصادقين، تذكرت عيونك التي تغازلني بعد أن تعاتبني، تذكرت حبيبتي التي لا أطلب من الدنيا سواها، فانسحبت بكل ما أوتيت من عزم وقناعة.

إنك هذه المرّة منقذتي من شيطاني الوضيع، كم تغلّب عليّ! وغلبتهِ أنت اليوم يا مُشاكسة!

يرد بسرعة:

- أعلم أنك ستحللين أبعاد الموقف وتشرعين في تأويل تصرفاتي ودوافعها، لطالما تغلّبت عليّ في استنباط أمور ودلالات تكشف الكثير وغابت عن ذهني شخصيًّا، لكن..

لا أريد أيًّا من هذا الآن، ارفقي بحالي ولا تقابليني بأي شك أو لوم، فالأمر مختلف هذه المرة، مختلف جدًّا.

كل ما أريده الآن هو أن نحتفل أنا وأنت، وبمناسبة.. نعم بمناسبة، نحتفل بانتصارك، وبميلاد عهدنا المقدّس من جديد، نحتفل بأشياء كثيرة لم نحتفل بها من قبل.

يسعدني ويكفيني أنّي قريب منك إلى هذا الحد.. الحد الذي أستطيع به مصارحة زوجتي الرزينة والمُتفهّمة بأي شيء، إنها ميزة لطالما حسدني عليها الرجال يا عزيزتي.

- .....

- أرجوك لا تظنّي أنّ في قولي هذا مبررًا للتمادي، فأنت أكثر من يستشعر صدقي من عدمه، ومجدّدًا أقول: يكفيني أني قريب منك في هذه اللحظة وأحادثك بلا تردد.

تفضلي يا حبيبتي الجميلة، وأنت أكبر مقامًا عندي من كل الهدايا، هنيئًا لي بك، وبتأثيرك عليّ في كل مكان وزمان.

تذكّري ما قلته منذ قليل؛ إنَّ ما حصل لم يكن شجاعة منّي وحسب، بل لأنّي تذكرت في لحظتها زوجتي التي -ولله- لا أطلب من الدنيا سواها..

ولن أطلب.

يمد يده حاملًا قلادة ذهبية رقيقة، يعلقها على زاوية الصورة التي يلف زاويتها الأخرى شريط أسود، ثم يغادر الغرفة نقيًّا من خطاياه.

المريض

- كيف حالك اليوم؟ أنا الدكتور سيمون المشرف الجديد على حالتك.
- أحاول أن أكون بخير بينما أتحمل دخولكم وخروجكم واحدًا تلو الآخر.
- أخبرني يا سيد..

يلقي نظرة على ملفه الشخصي ويتابع..

- يا سيد عارف، ما سبب حنقك المتواصل على المصحة والعاملين بها القائمين على راحتك وسلامتك؟
- ..

يضحك:

- أجزم أنك لا تعرف شيئًا عني أساسًا، أو عن حنقي المتواصل كما تزعم، وأن الممرضة البلهاء هي التي نقلت لك أخبارًا سخيفة.. القائمون على سلامتي! إنك لا تعرف اسمي حتى فلا تدّعي متابعتك وحرصك.. دعني وشأني رجاءً.
- سيد عارف.. أنت متعب وبحاجة لعناية وإرشاد، وهذا ما تم تكليفي به.
- بعد انسحاب الطبيب السابق.

يضحك ويصمت بسرعة:

- لقد يئس مني، المشكلة أنكم تعاملون جميع النزلاء هنا وكأنهم مجانين وأطفال، تطبقون النظريات كما هي جامدة دون فهم حقيقي لحالة الشخص..

لست مريضًا على أي حال، إنها مجرد نوبة اكتئاب عادية يا دكتور ريمون.

احم.. سيمون.

- اشتدت النوبة مما أدى لنتائج لا أرتجي مناقشتها وإياك.. لكني سأسألك سؤالًا، إن أجبت إجابةً مشابهةً لإجابة الطبيب السابق سيتعين عليك أن تدعني وشأني ابتداءً من اليوم، إما إن كانت إجابتك مختلفة فستتابع حالتي وتعالجني كما تدعي.
- موافق.. تفضل.
- متى كانت آخر مرة انتابك فيها اكتئاب عارض؟
- لا أذكر أني بعد الجامعة -تعلم ضغوطات الدراسة وطيش الشباب- تركت نفسي أصل للمرحلة التي تتحدث عنها، إني من المتخصصين بهذا المجال، وأعلم جيدًا أن..

يقاطعه دون أن ينتظر منه إنهاء الجملة:

- مبروك.. إجابة زميلك ذاتها مع فروقات طفيفة.. يا دكتور..

(يميل السيد عارف رأسه قليلًا وفي عينيه نظرة إشفاق) أنت مريض، وأنا لا أثق بعلاجٍ على يد مريض.. أنُفسح مكانًا لسرير إضافي في الغرفة؟

- على يد مريض!

يعجز الطبيب عن استكمال جملته لثوان بسبب الدهشة التي اعترته وهو يتأمل إزار السيد عارف الملقى على الأرض، وفكَّر في حالته التي بدا أنها في تذبذب لا يستهان به، وأخذ يقلب الأوراق في الملف باحثًا عن أسماء أدوية قد تكون ذات أعراض جانبية تظهر على المريض.. يرد:

- سأتركك لترتاح.

***

وفي مساء اليوم ذاته..

يدق الباب، يرفض السيد عارف دعوة الطارق أيًّا كان للدخول.

يفتح الدكتور سيمون الباب ببطء.. ثم يدخل بخفة للتأكد من يقظة المريض.

- احم.. قبل أن أغادر وددت إخبارك أني -بحسب اتفاقنا والشرط- أوكلت زميلًا لمتابعة حالتك، ولن أكون مسؤولًا عن أي شيء يخصك بعد اليوم. ولكن..

يضع الطبيب يديه في جيوب سترته السوداء ويتابع:

هنالك ما أود معرفته.. فضول لا أكثر، ما الذي دفعك لنعتي بالمريض؟

- سألتك عن آخر مرة كنت فيها عرضةً للاكتئاب، وكانت إجابتك بالنفي قاطعة وحازمة في ما يتعلق بمرحلة ما بعد الدراسة الجامعية.. وأفترض أنك لا تتعمد الكذب أمامي.

- وأين العلة أو المرض في ما قلت؟

يشير السيد عارف إلى الكرسي بصمت داعيًا الطبيب للجلوس، فيجلس.

- إن أسوأ ما قد يحدث للإنسان هو عدم الاكتئاب قليلًا.. الاكتئاب كحالة طبيعية غير مفتعلة ولا مبالغ بها تنم عن سلامة صاحبها وشفافيته، فهذه الفجوة الحسية والنقلة المتناوبة ما بين السعادة والحزن، الراحة والقلق، الرضا والسخط، الاجتماعية والانطوائية، تجعل الحياة حياةً، والشعور قيمًا متغيرة لا تنفي ذاتها بثبوتها على نمط واحد.

ومن منطلق أن الأشياء تعرف بأضدادها، من الأحرى أن لا تكبح رغبة في البكاء، ولا تكمّم أصواتًا من أعماقك، ولا تعامل سلبيتك في حينها كطفل يُمكن أن يراضى بقطعة حلوى ما أن ينتهي منها حتى يعود شاكيًا متذمرًا.. لا تفعل أيًّا من هذا بدعوى القوة أو الإيجابية، لأنك بذلك ستعارض مبتغى الاثنين بعاقبة وخيمة على النفس، بل أعط مزاجيتك حقها في التعبير طالما أن الأمر لا يضر بغيرك.

أجزم أنك سمعت في حياتك ما يزيد على ألف حكمة وموعظة عن التفاؤل والأمل، ولا ضير في ذلك.. ولا ضير أيضًا في أن تلتفت لحكم أخرى قد تعرّي جانبًا مظلمًا منك كنت تغطيه بألف إزار، وتستفزه ليرى النور بعيدًا عن أي كبت نفسي يُضاعف المساوئ التي نتجاهلها ونكرهها على الاستتار الذي لا ينفك يزيد الثقلَ ثقلًا..

اصرخ إن استطعت، توحد إن أردت.. جاهر برغبتك في الانفصال ولو ليوم واحد دونما خجل.. فما الذي تخجل منه؟ إني أطرح عليك سؤالًا أعرف أن إجابته لا تحمل في جوهرها إلا الرهاب من نظرة الآخر تجاهنا.

تراوَح ما بين الحماس والفتور على العلن، لا تجبر ذاتك على ارتداء أقنعة اجتماعية ترغمك على إظهار عكس ما يعتريك..

ذلك أن الأساس في طبيعة البشر التأرجح بين المشاعر، أما الثبات على المباهج أبدًا فذاك كمال لم ولن نصل إليه.

إن كان الأساس الفطري كذلك فلمَ الاعوجاج وغش النفس؟

إن اصطناع الهناء الدائم وادّعاء الشعور بالسعادة غير المنقطعة أجدر بأن يكونا مدعاةً للاستحياء وخللًا يرافق صاحبه.

مثلك والحق يقال يحتاج لعلاج! منذ أيام الدراسة يا رجل؟!!

ظل الطبيب الذي لم يقاطع المريض ينصت ويهز رأسه، ولما تأكد من انتهاء حديثه نظر إلى ساعة يده ثم خلع نظارته وقال:

- طيب، علمت عن عزلتك التي دامت لفترة غير وجيزة قبل أن يحدث ما حدث. ألا تعتقد أن الانطوائية والانكماش على الذات والتقوقع أمور تسهم في تفاقم حالتك؟ أنت رجل ذكي وأجزم أن لديك الكثير من الأصدقاء والمعارف الرائعين ممن يلتفون حولك بألفةٍ، فيبقون شعلة الحماس والنجاح والانخراط في بيئتك المحيطة متقدةً بدلًا من إخمادها بالابتعاد.

يرد السيد وهو يحك رأسه:

- أتعلم يا دكتور مارون..
- سيمون!
- هناك عامة سطحيون جدًّا لأنهم يصنفون روعة الشخص أو الصديق وأهمية التقرب إليه، بناءً على كونه اجتماعيًّا أو انطوائيًّا، وبنسب تتفاوت ما بين التصنيفين..

إن كان ولا بد من الاحتكام للمعيار السابق، فالأجدر أن تنجذب نحو الانطوائي بالدرجة الأولى..

لا أحد أكثر احترامًا، وتقديرًا لذاته وتصالحًا معها من ذاك الغارق في ذاتيته، فهو ليس سلبيًّا كما يظن ضيقو الأفق، إذ إن رغبته بإمضاء أكبر وقت ممكن مع ذاته، والتعرف إليها أكثر، وتلبية رغباتها بتأنٍ بعيدًا عن صخب العالم ولغَطه المتواصل، هي قمة الإيجابية.

إنه ليس «فاقد» الثقة بالنفس كما يعتقد أولئك أيضًا، أظنه «فائق» الثقة بذاته، لا بل نرجسي حد الاقتناع بحقيقة أن لا أحد أحق بصحبته سوى نفسه، ولا أحد يستحق شرف مرافقتها أكثر منه!

لن تتصور مدى رغبتي في معرفة شخص كهذا، ليس لأنه على صواب وغيره على خطأ، بل لأني أحتاج أمثاله بين الفينة والأخرى كي أقوى على الحياة -لا تستغرب- وأتعلم تقدير الذات..

سيعلمك المئات حب الحياة، وحب الغير، وحب أشياء كثيرة.. لا أنكر ضرورة ذلك، لكن.. ما فائدة هذا كله وأنت لا تُكنّ منه لنفسك القدر المطلوب؟

وقلائل جدًّا.. جدًّا من سيعلمونك كيف تتوغل في ذاتك بأريحية، فلا تتفادها ولا يقشعر بدنك وتتعرق أطرافك حين تختلي بنفسك برهةً من الزمن تحت وطأة ظرف عارض..

ظل الصمت سائدًا لدقائق، فعدل السيد عارف وضعية الوسادة خلف رأسه متهيئًا للنوم.

- والآن بماذا تشعر بعد أن عرفت علتك؟

يهز الطبيب رأسه نافيًا الشعور بأي شيء.

- ممتاز.. تطور ملحوظ وسريع. لكن في المرات المقبلة إن حدث وسألتك سؤالًا كهذا وكانت إجابتك: «لا شيء».. لا تهز رأسك نافيًا وحسب.. بل قلها بصوت واثق وجهوري..

إن اللاشيء يا.. يا..

- سيمون!

- يا دكتور سيمون، اللاشيء هو قمة الشعور وأقدسه، لا تخفه مطلقًا!

فلتتفاخر قليلا بقدرتك على إتقانه، فتطبيقه يستعصي على الكثيرين ممن يجبرون ذاتهم على الشعور، يفرحون عنوةً، ويختلقون أحزانًا درامية ومتكلفة، وقد لا يعي الواحد منهم أنه يفعل ذلك، فعدم الشعور بأي شيء على الإطلاق قد يفزعهم، لذا تراهم يهيّجون عواطفهم تدريجيًّا للاشمئزاز من موقف بعينه مثلًا، أو قد يصطنعون الانبهار تجاه أسخف الأمور فقط لظنهم أن الموقف يتطلب ذلك.

إذن، هل تريد أن يصرخ الإنسان وأن يبكي وأن لا يصطنع البرود كما أسلفتَ في بداية حديثنا؟ أم أن يتجنب الانفعالات ويستبقي على برودة؟ لم أعد أفهمك يا سيد عارف..

- تطورات متتالية.

ما قصدته هو أن تُظهر ما يعتريك حقيقةً، وليس الصورة الذهنية التي تريد أن يطبعها الآخرون عنك في رؤوسهم، تخيل نفسك تقف أمام لوحة في متحف، وقد سمعت -قبل دخوله- أن الفنان الذي رسمها صاحب رؤية عميقة، والمتحف يعج بأصحاب الذائقة الفنية الرفيعة.. وها أنت تقف أمام لوحته التي حازت على أعلى نسبة من الإعجاب إلى جانب مجموعة من المتفرجين والفنانين والمصورين.. تمعن النظر فيها لكنك لا تفهم شيئًا، رغم أن الجميع يصورون اللوحة، ويتعجبون لعمق المغزى وتجانس العناصر الفنية فيها.. ثم سألتك آنسة لا تعرفها وتقف بجانبك عن رأيك بهذه اللوحة.. هل تجرؤ على الاعتراف بعدم فهمك لها؟ أو بأن صاحبها لم يفلح في إيصال رسالة محددة لك من خلالها عدا عن كونها بضعة ضربات متداخلة من ألوان عادية؟

- لا.. لعدة أسباب.

- أولها وأهمها أنك لا تريد أن تظهر بمظهر الهمجي الذي يفتقر للإحساس الفني.. وآخرها احترامًا للفنان إن كنت شخصًا نبيلًا بحق.

مهما كانت أسبابك، البرود في إبداء رد الفعل هنا أصدق وأكثر عقلانية..

لست مضطرًا لمدح اللوحة أو إجبار ذاتك على استخلاص الروائع منها.

والآن تخيل أنك تمشي في الشارع مع مجموعة من الشبان في طريقكم إلى النادي الرياضي، تتراهنون على قدرة كل منكم على تحمل تمرين رفع الأثقال بأوزان كذا وكذا.. وفجأة لمحت خلف واجهة زجاجية لوحة ما -نحن في سيناريو آخر الآن، لا تعرف شيئًا عن اللوحة أو الفنان من قبل- وأنت شخص حساس جدًّا، وبمجرد رؤيتها صنعت بداخلك هذه اللوحة فوضى حسية لا يسعك تجاهلها، غيرت مزاجك تمامًا، ونكأت جرحًا تتناساه بصعوبة، تنبه أحد الرفاق إلى نظراتك المثبتة على اللوحة وتعابير وجهك الغاضبة.. وسألك عن السبب، هل ستخبره بالحقيقة؟

- ...

- التظاهر بالبرود في هذه الحالة اختياري ومقبول عمومًا فهي مسألة خصوصية.. أو مسألة قوة ظاهرية، ولكنه بلا شك كبت يتراكم وقد يظهر بهيئات مختلفة لاحقًا.

إن ما أقصده -مجددًا- هو أن لا نفعل أي شيء فقط لنكون ذوي شعور محدد تجاه ما نعتقد أنه ينتظر منا ردة فعل حسية قد لا نملكها أحيانًا يا..

- سيمون!

- نعم، والآن بماذا تشعر؟
- بأنك مهتم بمشاعري أكثر من اهتمامك باسمي..
- هنا يكمن صدق موقفي وعمقه، إني أقف في تشخيصي عند ما لا يستوقفك في نفسك، وأتجاوز عن المعلوم لك وللآخر كما يحدث أن ينسى الطبيب اسم مريضه، ألا تذكر حين دخلت علي صباحًا ورحت تطالع الملف محرجًا؟ مع فرق درجة الاهتمام طبعًا.

يبتسم ويتابع:

- والآن انتهى وقتك. لقد حادثتك كثيرًا رغم أني لم اعتد الإسهاب في الحديث، ولم أكن لأفعل ذلك لولا حاجتك له.

ينظر الطبيب إلى ساعة يده، ثم يغلق باب الغرفة وراءه.

لوحظ بعدها من قِبَل ممرضين ونزلاء وأطباء أن الدكتور سيمون يتردّد يومًا بعد يوم إلى غرفة السيد عارف بعد انقضاء ساعات عمله..

الماتريوشكا

- لماذا يتوجب علي أن أفتح عينيّ وأنهض من السرير؟

لا ضير في أخذ إجازة من العمل، فعلى كل الأحوال أنا إنسانة متفانية في عملي، ودائمة التحمّس ليوم جديد.

وبشكل أعم أعتبر ذاتي مُنجزة، طموحة.. حالمة، وأوفق جيدًا بين حياتي الشخصيّة، والعمليّة، ولطالما تميّزت في حياتي العلمية خاصةً في مرحلة الدراسات العليا، أحظى بمكانة جيّدة في مجتمعي الصغير، لست اعتيادية البتة، لا أحسب نفسي جرمًا صغيرًا.. وأعرف كيف انطوى فيّ العالم الأكبر..

ألا يحق لي بعد هذا كله يوم إجازة واحد أختلي فيه بنفسي؟!

- بلى، يحق لك بالطبع.

يرد صوتها بداخلي.

- يحق لك يومان، ثلاثة، عشرة.. لو كان أي مما ذكرت صحيحًا.

تفقد ساعتي البيولوجيّة تلقائيًّا متعتها في أداء مهمتها، كيف لا وقد استيقظت الآنسة قمر لتقرع طبول الصباح بكل نشاط وأمل..

لا تزعجني بتاتًا، أعتقد -وعلى العكس تمامًا- أنّي من يزعجها، أنا من يخيب ظنونها عادةً ويسهر الليل بطوله عبثًا فلا يتركها تنام، وفي

الصباح يرفض أن يفتح عينيه تكاسلًا في حين تملؤها الحماسة لفعل أي شيء.. أي شيء مهما كان.

لها الحق في الاستهزاء بي كما فعلَت للتو، ففي نهاية المطاف هي آخَري الذي أَنشُد، الآنسة قمر نسختي المُشعّة، ويبدو أني النسخة التي تعرضت للخسوف.

لا يقتصر الأمر عليها، فهنالك أخريات، تنازع كل واحدة منا الأخرى لتسليط الضوء عليها ولو قليلًا. أظل أتأرجح بينهن دون ثقة مطلقة بأيّهن، أجهل كيف أصف الحالة.. أقرب ما تكون لدوامة نساء في واحدة، وبتعبير أدق؛ توجد داخل كل واحدة نسخ أصغر وأصغر، أولاهن وأضعفهن فتاة أسميتها قمر.. عفوية تملؤها الحيوية.. يصعب عليها كبح انجرافها صوب رغباتها الكثيرة والساذجة أحيانًا، إلا أن عفويتها هذه تكون في كثير من الأحيان الطريقة المُثلى للوصول إلى الفرص التي لا تحتمل التردد والتفكير، تسكن داخل امرأة بليدة محايدة لأبعد حد، لا تتدخل بشيء ولا تُعنى أساسًا بشيء، تفضل أن تظل بعيدةً وبلا رأي رغم ذكائها المتقد، ولربما كان حيادها هذا نتيجة ذكائها، تعيش هذه البليدة داخل راهبة صارمة ترفض العبث أو التطرف سواء كان ذلك في الرغبة أو الحياد، إلا أنّ الراهبة تسكن داخل طفلة لا تميز ذلك ولا تفهم شيئًا مما يحدث، تشاهد وتتعجب ثم تعود للهو واللعب تاركةً وراءها عالمًا من الفوضى، الطفلة تعيش بدورها داخل عجوز تعرف كل ما حدث وتتنبأ بكل ما سيحدث وتتذمر من أي تصرف ولا نعرف ما الذي يرضيها حتى اليوم،

العجوز ترقد داخل شابة متزنة تظهر للعيان.. هادئة.. لديها أحلام كثيرة، وما بين الحلم والواقع تفضل أن ترى الأشياء على حقيقتها، لكن ينقصها القليل من حس المبادرة والحسم في القرار، تحاول التمرد بين الفينة والأخرى لتشتيت هذه المدارات كلها، وتحار كيف تبدأ بتحرير تلك العفوية الأولى في حين تفصلها عنها مسافة أخريات أقوى!

هذه أنا..

أنهض من فراشي، أغتسل وأشرب الماء، وهكذا تكون واجباتي اليومية بحق نفسي قد انتهت.

تنتابني اليوم رغبة في الخروج قبل الوقت المعتاد والبدء بالجري فورًا، أحمل الأغراض، وأركض خارجةً.

إن الجري يجعل الأشياء حولنا تتماهى بسرعة وعلى نحو غريب، تنصهر واحدة تلو الأخرى ليصبح كل شيء بلا هيئة أو ملامح محدّدة، وكأننا الثابت الوحيد، مع أننا من يتحرك.

وكلما ازدادت السرعة ازداد ثباتنا، وهذا بأعيننا بالطبع.

أما السير ببطء فيجعلك تلاحظ كيف أن الأشياء راسخة وواضحة، ووحدك من يتحرك، تتحرك وتتحرك ولا تزال الأشياء ثابتة صامدة تحيط بك من كل جانب، وكأنها تحاصرك مهما ابتعدت.

أشياء.. أشياء.. والمزيد من الأشياء القابعة في مكانها، لكنك أثناء الجري تشعر أنها تهرب للخلف، وأنك تواصل للأمام بسرعة خارقة، كل منكما في طريقه.

الجري يشبهني، والسير يشبهها، إنها تحب أن تختال وتكون محط الأنظار.

على الرغم من الفوارق بيني وبينها، إلا أني أحمل مسؤولية إذابة هذه الفوارق يومًا ما، ترى ماذا سيحدث حينها؟ هل يمكن أن نتحد؟ وماذا سنصبح؟ ماذا لو فشلت في ذلك؟ أين سنصل جميعنا؟

أفكّر كثيرًا وأحلّل كثيرًا.. هذا ما جنيته من قراءة الكتب.

أتكئ على حافة سياج وقد أنهكتني أفكاري أكثر مما فعل الجري. ما بالي اليوم؟ حتى البليدة بداخلي تشعر باختلاج غير مألوف. جميعهن اتحدن واتفقن، لأول مرة، على النحيب معًا في منتصف الشارع.

كيف أساعدهن؟ كيف أغير واقعنا؟ فأنا لست كما أبدو للآخرين، إنني أفضل بكثير.

هل أتقدم لوظيفة ما؟ وما عساها أن تكون؟

آخر مرة تقدمت فيها للعمل لدى أحدهم عدت كطير مقصوص الجناح، لقد تظاهروا فور رؤيتي بعدم حاجتهم لمزيد من الموظفين رغم يقيني بعدم صحة ادعائهم ذاك.

حتى الزواج لم يحالفني الحظ به.. ومن سيرضى بمثلي؟ وإن يكن، «عادي».. بإمكاني أن أعيل نفسي... ولمَ لا؟

نعم.. لمَ لا؟ سؤال أكثر أهمية وأحقية في الطرح!

لطالما خذلني حس المبادرة، لكن ليس بعد اليوم..

سأطرق كل الأبواب التي تقابلني، بل سأفتش عن أخرى مخفيّة، والآن!

لن يحل المساء إلا وقد حررت قمر وسلمتها زمام الأمور.

أستجمع قواي وأعتدل في وقفتي، آخذ نفسًا طويلًا مفعمًا بالثقة. أقرر التوجه بدايةً للمبنى الذي يقع على ناصية الشارع.. سأبحث هناك عن أي عمل.

وبينما أغذ الخطى أشحذ همتي بكلمات تقويني وتؤكد مقدار اختلافي هذه المرة بالذات عن كل المرات السابقة، لم أعد خجولة ولا مترددة.

«برافو!».

ترد إحداهن وتضحك الأخريات.. أُخرسهُنّ وأتابع المسير.

أتوقف قليلًا، وأؤجل غايتي لخمس دقائق أخرى، المبنى سينتظر، لكن الضوء الأحمر لن يفعل، فهذا وقت لا يُفوّت لأُحلّق بأحلام مؤجّلة منذ خشونة أظافري.

أتقدم ببطء، يتناهى إلى سمعي حديث أحدهم عبر نافذة سيارة اصطفت أمامي مباشرةً وهو يقول:

«سحقًا لهذا يا رجل! كنت أظن نفسي أقل تهوّرًا.. النتيجة محبطة.. أستحق ما يحدث لي».

كان بودّي أن تكون لي مداخلة بسيطة، كأن أخبره عن قناعتي، بعد التجربة طبعًا، بأن الذات لا تستحق أن تعامل كوحدةٍ واحدة جامدة، ففي هذا ظلم لها وإحباط كما ذكر. وكانت النفس لتكون جحيمًا لا يطاق لولا

أوجهها المتغيرة.. السيئة قبل الحسنة، ربما كان الموقف فعلًا يتطلب منك قدرًا أكبر من العقلانية وربما أخفقت في إظهاره، لكن هذا لا يعني أن تجلد «ذاتك» ككل!

لكني لم أنبس بكلمة مما دار في ذهني وآثرت الصمت لسببين؛ أولهما أن لا أجعل من نفسي أضحوكةً وأتحدث عن النفس، فكيف لفتاة مثلي أن تتناول أحاديث كهذه؟ مجددًا.. هذا ما جنيته من قتل الوقت بقراءة كتب «البسطة» لدى أبي خليل..

وثانيهما أني يجب أن أنطلق بسرعة.. أثبت الأغراض تحت ذراعي ثانيةً، أرفع ذيل ثوبي عن الأرض وأجري؛ لا لرغبة تنتابني هذه المرّة..

بل لأن ضابط الشرطة في طريقه إليّ ليُخطرني بمنع البيع عند هذه الإشارة الضوئيّة..

إشارات مُنتظَرة

- نور! اجلسي قليلًا ما زال الوقت مبكرًا.
- لا أستطيع، فلتقضيا وقتًا ممتعًا.

ترافقها سيدة المنزل إلى الباب، ثم تعود إلى غرفة الضيوف.

- انظري، انظري جيدًا..

تقول أم بشار وقد التقطت لتوها فنجانًا على يمينها، ثم رفعته وحركته بحركة دائرية، نظرت بخفة وسرعة إلى صورة الرجل المعلقة على حائط الممر الداخلي قبل أن تضيف قائلة:

- أصلع، نحيل وطويل، مُدبر في نهاية طريق متعرجة.

ترتسم على وجه صاحبة المنزل علامات غريبة وتسارع بالسؤال:

- أصلع.. نحيل وطويل؟ لا أعرف أحدًا بالمواصفات نفسها إلا زوجي، لا بد أنه زوجي! ما معنى ذلك؟

إن شاء الله خير، لكن للاحتياط.. الإدبار في الفنجان يُنذر برحيل أحيانا.. لا سمح الله طبعًا.

تفرقع السيدة أصابعها وتنظر في عيني قارئة الفنجان.. وترد بهدوء:

- قد يسافر عما قريب.
- للسفر دلالات أخرى..
- متأكدة؟

- عزيزتي، أقول احتياطًا يعني لا سمح الله..

تقاطعها باندفاع وبنبرة صوت متقطعة:

- انتظري، سأبصم بإبهامي على جدار الفنجان، لربما توضَّحَ الأمر أكثر..

تبصم، وتنتظر النتيجة بتوجس..

تمسك أم بشار بالفنجان ثانيةً، وبعد أن تطالعه بإمعان لثوانٍ، تتسع حدقتا عينيها.. تتلعثم قليلًا وهي تنقر بطرف قدمها على حافة الطاولة السفلية بوتيرة متسارعة..

تبادر السيدة بالسؤال:

- ماذا؟

- يا ستي.. خلص، انسي ما قلت.

- قد أصابني الوهن وأنا انتظر الإجابة يا أم بشار. هيا.. هيا لا تخجلي!

ترد وهي تضع في جيب جليستها أجرة قراءة الفنجان وما يزيد عنها بقليل: مم.. إنه زوجك مجددًا، أو كما يفترض أن يكون، وهنالك طير يعتلي رأسه.

- والمعنى؟

- سيطير بعيدًا..

ترد السيدة مُضطربةً:

- إذن هو سفر.

- سيرحل دون شك، لا قدر لله طبعًا.. للسفر رموز أخرى كما أخبرتك.

ودون أن ترد بحرف تقلب السيدة الفنجان بغل وبقبضة كادت تتسبب بكسره فوق الصحن الذي يستند عليه.

***

في المساء..

يسلم زوجها عليها فور دخوله المنزل فتسأل:

- لماذا تأخرت؟

- ما بك عزيزتي؟ لا أهلًا ولا سهلًا؟ ثم إنها المرة الأولى التي تسألين بها عن سبب تأخري منذ أن تزوجنا حتى اللحظة..

يصمت بحيرة وهو ينتظر إجابةً شافية، ثم يردف قائلًا:

- حبيبتي.. لا بد أنك قد اشتقت لي اليوم أكثر من سائر الأيام..

تشيح بوجهها عنه وتضطرب نظراتها:

- نعم.. بالتأكيد عزيزي.

يجلسان إلى مائدة العشاء، وبعد أن يتناول الزوج مقدارًا ضئيلًا من الطعام يُعلن اكتفاءه:

- سلمت يداك عزيزتي.. الحمدلله.

- لم تأكل شيئًا!

- نعم، لكني أشعر بتخمة مُذ تناولت الغذاء مع زملائي، ولا أرغب في إثقال معدتي أكثر.

«لا بد أنك تعشيت مع إحداهن في الخارج.. ههه، أو تتلهف لمحادثة ما على الهاتف قبل النوم»..

يقاطع حوارها الداخلي قائلًا:

- ما بك شاردة؟
- اجلس وكُل من فضلك، أو لا تأكل.. اجلس حتى انتهي على الأقل.
- غريبة جدا أنت اليوم يا عزيزتي، لا أفهمك.
- أنا الغريبة؟
- نعم أنتِ، تصرفاتك تفتقر للمنطق، أو لمنطقك المعتاد على الأقل.

«أول سلاح يدافعون به عن أنفسهم هو اتهام المرأة تلقائيًّا إما بالانفعال العاطفي وإمّا باللامنطق، والغرابة، والتغير المفاجئ في السلوك.. حوارات مُكررة وحيل مكشوفة».

تحدث نفسها، ثم ترد ببرود:

- على العكس تمامًا يا عزيزي، أنت من يتصرف بغرابة؛ بدايةً لم تسألني عما أعددت للغداء.. على غير عادتك يعني، ثم تأتي متأخرًا، والآن لا تأكُل شيئًا.

يهز رأسه بسخرية ويرد:

- ذلك لأنك أعلمتني منذ الصباح بزيارة صديقاتك لك بعد الظهيرة، فافترضت أنك ستُعدّين شيئًا بسيطًا أو أنك لن تُعدّي شيئًا على

الإطلاق، ولم أرغب أن أثقل عليك بالسؤال.. كما افترضت أن زيارة كهذه قد تستغرق ساعتين على أقل تقدير، فلمَ سأزعجكن بحضوري؟ واعذري معدتي؛ لا أريد أن أموت بسبب وجبة، اعذريها من فضلك.

تكتم غيظها وتحدث نفسها قائلة:

«لقد أوجد له مبررًا، ثعالب.. ولكني كشفته على الأقل قبل أن يفوت الأوان وأصبح محط شفقة الأخريات. لقد بعث لله أمَ بشار لي لتقول ما قالت.. لا يجدر بنا تجاهل إشارات القدر، مهما كانت عابرة».

- لكني لم أطلب منكَ أن لا تأتي مثلًا.. أعلمتك بقدومهن فقط، ما الذي منعك من المجيء؟
- يا إلهي.. من أي سماء سقط هذا النيزك المشتعل؟ لم تطلبي عزيزتي... أعتذر لأني لم آت وأقاطع جلسةً نسائية بامتياز، بل ولم أحضر لكُنّ بيدي الملعونتين هاتين ما لذ وطاب من أصناف الضيافة.. يا لي من مراوغ!

تنهض من مقعدها وترد بحدة:

- وتناقش بسخرية أيضًا؟
- نعم، لأن الحوار السليم الجاد كما يبدو لم يعد يجدي نفعًا.

تتعالى أصواتهما، تتصاعد وتيرة الجدل ليحتد ويتحول إلى شقاق وخصومة، فتنفجر في وجهه قائلة:

- ما دام الأمر كذلك، فليكن.. لقد فقدت اهتمامك بي على أي حال، لست بلهاء لأغفل عن أمر كهذا.. فليكن ما تريد، فليأخذك الطير المُحلّق فوق رأسك الأصلع، ولتدبر عني بجسدك النحيل.. افعل ما شئت، ها أنا أعطيك حريتك الكاملة وأفتح لك باب الخلاص.. اذهب.

ينظر إليها باستغراب واستنكار دون أن يفهم معظم كلامها ويرد:

- حمقاء أنت.. أتعلمين ذلك؟ أغلب الظن أنك لا تعلمين.
- نعم، أعلم جيدًا.. حمقاء لأني بقيت معك وتركتك تتمادى إلى الحد الذي جعلك تخاطبني بهذا الاستهتار، وإلى الحد الذي أصبحتَ فيه وضيعًا بهذا الشكل. إياك والظن أني سأتحمل أكثر خشية البقاء وحدي والتعلق بقشة بعدك.

لطالما التف حولي مئات المعجبين وطالبي الزواج، لكن أبي – سامحه الله– ظنك الأفضل والأنسب على حين غشاوة بصيرة.

- ومن قال لك إني طلبت يدك هيامًا وإعجابًا؟ ها؟ يشهد الله أن والدتي قد جرتني يومها من باب منزلنا إلى باب منزلكم.
- هكذا إذن؟ كانت أمي منصفةً فعلًا حين وصفتها بالعجوز المسيطرة.
- لا أستغرب التعليقات السلبية والسخيفة من والدتك يا عزيزتي.. تظن أنها مثالية وتعرف كل شيء..

يبتسم ويتابع:

- خصوصًا عند إبداء ملاحظات تخص الإتيكيت وتوابعه.. أصلًا لو كانت تفقه في الإتيكيت هذا لعلمتك شيئًا منه! انظري إلى المائدة هذه مثلًا.. أهذا منظر يثير الشهية للأكل؟ أم أنه طعام سجناء؟ لولا أني صبور وذو أخلاق كريمة لما تحمّلت شيئًا من هذا! حتى ثيابي لا تجيدين غسلها، أو كيّها..
- ثيابك؟ وما ذنبي إن كنت بخيلًا لا ترتدي إلا أسمالًا رخيصة الثمن فتهترئ من الغسلة الأولى، وتحترق أقمشتها الرديئة فور ملامستها سطح المكواة، ثم إنك لا تهتم بنظافتك وهندامك حق الاهتمام.. امرأة غيري كانت لتشمئز من لمسها حتى، لا غسلها فقط.
- على ذكر الهندام والترتيب، لربما لم تلتقي في حياتكِ بسيدات المجتمع الأنيقات والمتزنات، بالطبع.. منشغلة مع أم محمود وأم بشار.. لا أعلم ما الذي يعجبك بصحبة مثلهن!

انظري إلى شعرك المشعّث، وإلى الشيب الذي يغزو مقدمة رأسك ولم تصبغيه منذ قرن.. ألا يعتبر هذا إهمالًا مثلًا؟

- على الأقل لدي شعر..
- سطحية! لطالما حاولت أن أتجاهل وأتجاوز هذه الخصلة فيك، ويومًا بعد يوم تؤكدين وجودها..
- وما الذي يجبرك أيها المضحي النبيل على ذلك لولا أنك تحمِل في المقابل عشرات الخصال السيئة؟ إنك تعرف قدر نفسك وربما لهذا كنت تحاول تجاهل ما تزعم.. وقد افترضت أساسًا كوني

كذلك حين لم تحتمل فكرة أنك مليء بالعيوب وتزوجت امرأةً أقرب إلى المثالية.. ممثل بارع!

- حسنًا إن كنتُ ممثلًا بارعًا، فأنتِ مخرجة المسرحية برمتها، صدقيني لولاك لما كنت أمثل.

يضحك لدرجة تستفزها أكثر فتكسر طبقًا فوق المائدة وتصيح:

- أغرب عن وجهي.. تافه!!

يتجه بوجوم إلى غرفة النوم ليلملم حاجياته، وعند الباب يلتفت إليها للمرة الأخيرة ويخاطبها قائلًا:

- إياك أن تحاولي التواصل معي بأي شكل!

يندفع خارجًا وهو يصفق الباب خلفه بضربة اهتزت لها أركان المنزل.

- جبارة أنا إذ تحملتك!!

تصرخ من شق الباب قبل أن تحكم إغلاقه.

تجلس بقوى خائرة كجثة هامدة تطالع الأرض. تظل على الحال نفسها لساعة قبل أن تستفيق على رنين هاتفها المحمول في جيبها..

تتردد قليلًا. تصارعها الأفكار، هل تجيب؟ وما عساها أن تقول.. ثم ترد أخيرًا:

- ألو..

- مرحبًا عزيزتي.. أعلم أنك لم تشتاقي لي كفايةً بعد، لكن..

- أهلًا.. (ترد وهي تحاول أن تستعيد نبرة صوتها الطبيعية بعد صمت طال).

- ما بال صوتك؟
- لا شيء إرهاق عادي..
- لا تكابري، أعلم أنك ما زلت تفكرين في ما قلت.. لكن لدي ما أقوله لك بهذا الخصوص..
- ما الأمر؟
- كنت أتكلم مع صديقتك نورا لتوي، وسألتني إن كنت قد أخذت نظرةً على فنجانها بعد أن وضَعَته على يميني وغادرَت على عجل..

(تضحك أم بشار بحرج وارتباك شديدين، ثم تتابع حديثها) لقد قرأت لك فنجانها دون أن أنتبه..

يسود الصمت لثوان تمر سريعًا خلالها عشرات الردود في ذهن السيدة، إلا أنها تكتفي بالآتي:

- حصل خير.

دون أن تفصح عن علمها مسبقًا بشأن الفنجان، ذلك أنها لم تكن قد شربت قهوتها بعد حين بدأ الأمر..

ميديا ثيرابي

تفتح الكاميرا الأمامية لثوانٍ، ثم ترمي الهاتف من يدها.

تنظر للمرآة، تقترب منها حتى كاد وجهها يلامس سطحها الزجاجي.. تتأمل أنفها الذي لطالما اعتقدت أنه أكبر من الحد المقبول وأنه يشكل لها مشكلة بحد ذاته.

حاولت أن تقاوم رغبتها القهرية في فقء إحدى البثور التي تعتلي جبهتها، إلا أنها لم تستطع، ففار الدم من رأس البثرة، ما زاد من اشمئزازها وكرهها لوجهها الذي لم يكفه شحوبه وضخامة الأنف الراقد وسطه كعجوز مترهلة، لتزيد بثوره الطين بلّة.

تمددت على سريرها مستسلمةً للواقع.

وفي محاولة للتسلي التقطت عن الأرض كتابًا يخص شقيقتها، فكرت بما قد يحتويه قبل أن ترميه، إذ بدا من عنوانه المُعقَّد أنه مليء بالأفكار والمعلومات التي ليس باستطاعة الجميع استساغتها.

أمسكت بهاتفها المحمول ثانيةً، التقطت للكتاب صورة، وقامت بتحميلها على حسابها الشخصي في الفيسبوك بعد أن أرفقتها ببضعة كلمات تشيد بالقراءة، ثم ألقته حيث كان.

فكرت لهنيهات في ما فعلت لتوها، بدا الأمر لها كفرض وعبء ثقيل لا يمكن تفسيره.

وبينما هي تفكر في ما هو مفروض عليها وما ترغب بفعله حقًّا تذكرت أنها لم تقم بتحميل مقطع الفيديو الذي صورته صباحًا بعد أن أرغمتها صديقتها على مرافقتها لحضور ندوة تُعنى بدور الشباب في التنمية المستدامة، وغادرت بعد عشر دقائق من بدء الندوة. أمسكت هاتفها مجددًا وقامت بتحميل الفيديو بعد أن تأكدت من تفعيل خيار حظر المشاهدة للصديقة ذاتها، وكتبت في المنشور:

«أشكر القائمين على هذه الندوة الرائعة التي حرصت على حضورها واستفدت كثيرًا من المحاور التي طُرحت فيها».

أما على الانستغرام فقامت بتحميل صورة للطبق الذي تناولته في المطعم القريب من مركز انعقاد الندوة بصرف النظر عن مذاقه الرديء.. فكيف لها أن تأكل طبقًا بطريقة عرض مميزة كتلك، ثم لا تُخبر الجميع بذلك؟ أحست أن شيئًا ما زال ينقصها، رفعت رأسها عن الهاتف، فقابلها انعكاس وجهها في المرآة.. كيف يمكن لأنفها أن يكون بهذه الوقاحة؟ فكرت.

كيف له أن يستفزها بين الحين والآخر؟ لا بد من الانتقام.

أمسكت سريعًا بالهاتف، فتحت الكاميرا الأمامية مرةً أخرى لالتقاط «سيلفي» باستخدام الـ«فيلتر» المعهود، الذي يعمل بالدرجة الأولى على تنقية البشرة وتعديل شكل الأنف في الصورة مع تكبير حجم العينين قليلًا..

وأخيرًا قامت بتحميلها على تطبيق «سناب شات»، إلا أن الشعور نفسه لم يغادرها، بل أخذ يتضاعف ويتشعّب.

كان هذا الإحباط المقنّع يتمكن منها في كل مرة لإحساسها الداخلي بغياب الإنجاز، وبكونها لم تحقق في حياتها شيئًا يُذكر. وكلمة «يُذكر» بحد ذاتها تختلف من زمن لآخر بنظرها، فهي لا تكاد تجد حتى اليوم فروقات بارزة بين ماضيها وحاضرها سوى أنها تخرجت من الجامعة وعملت بوظيفة اعتيادية، الأمر الذي لا «يُذكر» في زمن كهذا كما ترى هي.. زمن يتهافت فيه كل من حولها لكسب شيء لم يسبقه إليه غيره، التنافس بهدف التميّز في الألقاب والأعمال، والأزياء، ولم يقف الأمر عند ذلك بل وصل لأصناف الطعام والشراب المتناولة والاهتمامات المتداولة، ومختلف الكماليات المرهقة للروح والجسد معًا، والتي لا تُشعِر صاحبها إلا بانتفاشة جوفاء إلى الحد الذي يشعر فيه أمثالها أن الجميع من فئة المشاهير المؤثرين اجتماعيًّا ووحدها من العوام. كيف لها إذن أن تكون اعتيادية إلى هذا الحد بين هؤلاء؟! إن الأمر ليس بتلك السهولة.. كيف يمكن للفرد أن ينشد العيش بسلام وبطمأنينة وأن يواكب هذه المبارزات الرقمية على مدار الساعة في وقت واحد؟

استفاقت من غفلتها على صوت رنين لإشعارات متتالية، فالتقطت هاتفها لتقرأ..

الرد الأول على الصورة:

«ما شاء لله! بشرتك صافية وملامحك ناعمة جدا».. ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة..

ثم تعليق على منشور الكتاب:

«تعجبني اختياراتك، تمتلكين ذائقة أدبية مميزة».. اتسعت الابتسامة أكثر.

ومجموعة إعجابات وتعليق على الفيديو:

«كلنا فخر بك، وبجهودك الراقية».

أمالت رأسها سريعًا على الوسادة وهي تكتم ضحكتها التي تفيض اعتزازًا ولسان حالها يردد: ما أجمل أن يحب المرء ذاته، بل يفخر بها!

مرت على منشوراتها الأخيرة وتلك القديمة بعض الشيء مرورًا خاطفًا كما تفعل كل ليلة قبل النوم بدقائق، ثم أغمضت عينيها باطمئنان ورضا بينما كانت إحدى متابعاتها على ذات المنصات الاجتماعية تتفحص المنشورات مع التعليقات بغيظ وحنق.. إذ أحست الأخيرة بكونها لا شيء «يُذكر» أمام تلك..

وأخذت تتلفت بارتباك حولها..

هاجس قهري في اللاوعي كان يدفعها لتصوير أي شيء، ويردد داخل رأسها: «أنا أُوّثّق.. إذن أنا موجود».

في الظل

- سكينة.. يا سكينة..
- قادمة..

ينبعث صوتها من بعيد. تدخل غرفة الجلوس فتجده متكئًا يشاهد التلفاز بلا تركيز.

- تبدو شقيقتك حزينةً بعض الشيء، لعلها مستاءةٌ مما حدث البارحة، حادثيها قليلًا وطيّبي خاطرها، حسنًا؟
- ألا أبدو مستاءة أيضًا؟
- بنيتي، أنت أكبر منها عمرًا وأقدر على تجاوز خلافات سطحيّة كهذه! حادثيها هيّا.
- حاضر.

تحمل قطتها بيديها وتغادر، وفي طريقها لغرفة شقيقتها، تمد رأسها على نحو خاطف من النافذة لتتأكد من خروج جارهم من منزله.

- ها هو تتمتم لنفسها قائلةً.

تبدأ الفقرة المسائيّة لمراقبة الجار الذي ينشغل يومًا بعد يوم لنصف ساعة على أقل تقدير في العناية بنبتةٍ في فناء منزله.

تفكر في قرارة نفسها بما يحدث، وقد باتت متأكدة من كونها نبتته المفضّلة أو لربما أهم ما يملك في الحياة ككل، فهو على أي حال لا يملك الكثير غيرها، ولا يولي غيرها اهتمامًا مماثلًا.

تقفز القطة وتستقر على حافّة النافذة لتراقب هي الأخرى.

- انظري، ها قد بدأ صاحبنا طقوس الدلال، أجزم أنّها قد كلفته الكثير من المال، على الأقل مذ بدأت بمراقبته حتى اليوم؛ ماء، وتراب صناعي، وبخاخات، ومبيدات، وأسمدة.. والكثير الكثير من منتجات وأدوات العناية بالنبات، وهناك..

تشير للقطة بإصبعها

- هناك في الخلف تتكئ على الحائط نبتة أخرى، لا يُمكن رؤيتها بسهولة فهي أقرب إلى الداخل من الخارج، ولكني استطعت مراقبتها هي الأخرى، إنّها تنمو من تلقاء ذاتها كأنها لا تطلب هواءً، ولا شمسًا، لكن لا بد أنّها تحتاج شيئا ما بصمت، ولو مداعبةً شقية برشة ماء، يُخيّل إلي أحيانًا أنّي أسمع نداءها لجارنا في محاولة لاسترعاء انتباهه، وقد ينتبه في بعض الأحيان.. فيهز أوراقها لتفحص خلوّها من الحشرات والغبار المتراكم. إنّ المسألة صحيّة بحتة! إنّه وإن اهتم بها لبرهة من الزمن، فإنّه يفعل ذلك لتظل على قيد الحياة لا أكثر!

- سكينة..

- نعم.

- بنيتي، قبل أن أنسى.. حاولي بعدها أن تساعديها في كتابة السيرة الذاتية، أنت أعلم منها بهذه الأمور، ستحتاجها للوظيفة التي وعدنا بها أبو جابر في مكتبه.

هزت رأسها وتابعت مراقبة فقرة العناية النباتيّة، ثم خاطبت القطة قائلة: «أتمنى لو باستطاعة النباتات سماعنا.. لأخبرت هذه النبتة كم هي بلهاء ومغفّلة حين تبقى على سكونها هذا، إن اخضرارها الدائم في وجهه يجعل الاهتمام بها أمرًا غير ضروري، فهكذا هي بعض الأشياء. لا بد أن تصدر ضجيجًا وتحدث جلبة ليتنبه الآخرون لوجودك، بل ليقيموا له وزنًا ويحسبوا لأجله ألف حساب، ولو كان ضجيجًا زائفًا.. المهم أن تثير حولك ولو علامة استفهام أو تعجب واحدة.. الألوان مثلًا، كلما ازدادت نصاعةً وبريقًا لمعت في أعيننا. الصوت.. كلما علا أعرنا المتحدث اهتمامًا، الآلام.. كلما اشتدت تنبهنا لوجود خطب ما، فلماذا تخضر بصمت متفاديةً بضعة مشاكسات تستدر عليها المزيد من الرعاية؟

ظلت تتابع تحركات الجار إلى أن انتفضت غاضبة لما حصل أمام ناظريها.

- انظري! إنه يرفع مفضلته عن الأرض ويضعها فوق.. ليتباهى بها أمام المارة بالطبع.

وتلك المسكينة لم ينظر لها حتى.. سلوك مستفز!

اعتصر القهر أحشاءها واتجهت كثور هائج إلى منزل الجار.

***

وهناك..

- مرحبًا.
- أهلًا أهلًا.
- نباتاتك جميلة يا عم.

قالت وهي تحاول أن تختلق بداية ملائمة ومبررة لمحادثة تهدف في نهاية المطاف إلى التدخل بشكل مباشر بالعلاقة التي تربطه بنباتاته.

- على حسابك.. أخبريني ما رأيك بهذه؟

قالت في قرارة نفسها:

- هـه رد متوقّـع، بـالطبع سيسـألني عنهـا جـاهلًا كـوني أعـرف حـق المعرفة أنه لا يرى سواها.

ثم ردت بصوت مسموع:

- لـم تعجبني هذه بالذات بصراحة.

كانت تحاول استفزازه، وتوعيته في آن واحد.

- للأسف! كنت سأهديكِ إياها، تفضـلي واشـربي الشـاي، سأحضـر لي كوبًا آخر.

تناولت كوب الشاي وتعابير وجهها لا تخلو بأي شكل من معالم التيه والدهشة:

- غير معقول، لولا أن سخونة الشاي لسعت طـرف لسـاني منـذ ثـوانٍ لاعتقدت أني في حلم، كيف يعرضها علي؟ أو بـالأحرى لمـاذا لـم يعرض علي سواها؟

لـمَ لـمْ يـأت علـى ذكـر الأخـرى؟ ألهـذا الحـد ينكرهـا؟ في السـراء والضراء؟!

تعاظم الفضول في صـدرها وشـعرت بشـفقةٍ تمزّق قلبهـا وهـي تنـاظر تلك الصبورة متكئةً على الحائط ومنسية، فشقّت دائرة الصمت بجملة لم تتوقع أن تخرج منها:

- أريد هذه! سأحسن رعايتها وستكون بمأمن عندنا.
- أحضر لك مثلها بالضبط إن شئت..
- ولم لا آخذ هذه، وأحضر لك مثلها؟
- مستحيل، لا أستطيع !

أطرق برأسه وانفرجت شفتاه عن طيف ابتسامة، ثم أضاف قائلًا:

- من بين كل النباتات التي زرعتها واعتنيت بها في حياتي، لم أجد مثل هذه. أما تلك اللعينة فوق السور، ففكرت مرارًا وتكرارًا بتركها لتموت، إلا أن ضميري لم يطاوعني..

مُتعبـة، مُهلكـة، حاجياتهـا لا تنتهـي، ومـع ذلـك لا تبـدو بالروعـة التـي تخيلتها بها حين ابتعتها، رغم أنها حديثة العهد هنا إلا أنها قد أتعبتني أكثر من غيرها، وضعتها على السور كي أبعدها عن نظري ولو قليلًا.

لعل قطةً تسير فـوق السـور تصـطدم بهـا فتوقعهـا، أو لصًـا يسـرقها، أو أحدًا من الجيران يمدحها فأهديه إياها كما كنت سأفعل لتوي.

ضحك وهو يضرب كفه بركبته، ثـم أشـاح بوجهـه إلـى اليسـار قليلًا، وأردف قائلًا:

- أما هذه، فأريدها هنا أمام طاولتي وأنا أشرب الشاي كل مساء، وأمتع أنظاري بها عند دخولي المنزل وخروجي منه.

تسمى زنبق السلام، وهي مسالمة بحق، ومناضلة أيضًا، لدرجة أنها قد تعيش داخل حجرة بلا نوافذ ومع ذلك تظل مخضرّةً، كما تفضّل تعطيش تربتها على أن تُروى بما يزيد عن حاجتها! رغم هذا كله تفوق سواها جمالًا ونضارةً.

- طيب، كيف تعرف إن كانت تحتاج شيئًا؟ تسأل بإلحاح..
- تخبرني على طريقتها، تسدل أوراقها الخلابة على استحياء فتهبط كما تهبط النوارس العطشى لترتوي ثم تعلو محلقة بانتعاش.

وما أن ألبي طلبها حتى تعود أوراقها ممشوقةً وحيويةً من جديد.

لن تتخيلي مدى تعلقي بها مهما وصفته، إنها أكبرهن، أي الأقدم عمرًا بين النباتات هنا، وهي أعلم بتعبي منهن، لذا فهي الأقدر دائمًا على تخفيف همي دون أن تثقله بطقوس العناية والمتابعة.. لها في قلبي مكانة خاصة.

ترتشف الشاي ببطء وهي تفكر بكلماته الثلاث التي تبادر لذهنها أنها قد سمعتها من قبل (الأكبر، والأقدر، والأعلم).

واحد من النخبة

أسدَلَ الستائر بحجة أن أشعة الشمس تشتت الفكر وأن في الظلام عمقا لا يدركه العوام. أخذ يقف ثم يجلس مطرق الرأس تارةً ومتأملًا السقف تارةً أخرى وهو يعتصر أفكاره للتوصل إلى موضوع المقالة التي يُلزم ذاته بكتابتها لسبب أو لآخر.

نهض مجددًا.. أشعل سيجارةً وراح ينفث دخانها بشيء من الاستعلاء.. الاستعلاء على العالم وعلى ذاته التي لا يحق لها أن تعجز بهذا الشكل بحسب اعتقاده.

أخذ يفكر ورأسه يتكئ على حافة البيرو كمن تتنزل عليه كل مصائب الدنيا.

رمى عقب السيجارة في المنفضة بانزعاج؛ فكيف له أن ينهي سيجارةً كاملةً دون أن تخطر له فكرة واحدة قيّمة!

فكر بأن المشكلة قد تكمن في السجائر. توجه إلى غرفة والده، وفتح الأدراج والخزائن واحدة واحدة باحثًا عن العلبة العاجية المزخرفة. التمعت عيناه حين وجدها فأخرج منها الغليون، وملأه بالتبغ ثم أشعله وعاد به إلى غرفته.

جلس هذه المرة على الكرسي الهزاز ووضع على ركبته دفترًا عريضًا، كما استبدل قلم الحبر الأزرق الجاف بآخر ثقيل الوزن ذي حبرٍ أسود سائل..

لعل الأفكار تأتي على قدر الأقلام.

وبعد ساعة من استحضار الأفكار، تضرج وجهه بالحمرة واستشاط غضبًا، فارتدى ملابسه على عجلة دون أن ينسى ربط الوشاح المخطط حول عنقه، وارتداء القبعة الفرنسية التي شابهت إلى حد كبير قبعة هنري الثامن، واتجه إلى وسط المدينة.

دخل مقهى يقال أنه بات تجمعًا لمُفكّري الجيل الجدد.

طلب هناك كوبًا من القهوة الفرنسية أيضًا، ولماّ أحس أن مذاقها لا يتلاءم مع حالته المزاجية استبدلها بالإسبريسّو الإيطالية، وبعدها بالشاي التركي، ظل يطلب مشروبًا تلو الآخر ليروي أفكاره العطشى.

استنفد كل محاولات الاستلهام من أجل الكتابة وتعزيز الميل الثقافي وتبعاته في نفسه، إلا أن أيها لم تسعفه.

فجأةً.. وعلى الأقل في نهاية يوم محبط كهذا تقدمت نحوه فتاة هيفاء بابتسامة مشرقة.

اعتدل في جلسته، تأكد من أن طرف الوشاح المخطط ينسدل بأناقة فوق كتفه الأيسر، ثم نظر إلى زاوية بعيدة وتناول بيده -لشدة ارتباكه- سيجارةً، رغم أنه ما زال يمسك باليد الأخرى خرطوم الأرجيلة التي كانت آخر محاولاته لاستخلاص عسل الوحي الفكري.

وقفت الفتاة أمامه مباشرةً وقد ازدادت ابتسامتها إشراقًا، أما هو فاستمر في التظاهر بانعدام الفضول لمعرفة سبب اقترابها، إلا أنها لم تكن تنتظر منه ردة فعل محددة، بل بادرت قائلة:

- مرحبًا.. اعذرني إن قاطعتك، لم أستطع تجاهل وجودك.. ولديّ من الجرأة ما يكفي لأن أُعبّر لك عن مدى سعادتي بذلك.

حاول أن يبدو رابط الجأش ويلملم فرحته التي شعر بأنها تتدفق من مسامات وجهه، فالاكتراث إلى هذا الحد ليس من سمات المثقف الرزين بنظره.

عقد حاجبيه ثم رفع ذقنه كما لو كان سيترك أنفه يتولى مهمة إتمام الحديث، وحرك رأسه بارتجاجة سريعة تعبيرًا عن إبداء تساؤل صامت حول ما قالت.

فأجابت:

- كنت أراقبك وأنت تمسك الورقة والقلم.. مرارًا وتكرارًا. تتأمل الأشياء، تدخن قليلًا، وتشرب كثيرًا، ثم تعود للورقة التي ظلت فارغةً كما تراءى لي من بعيد، وهكذا دواليك لأكثر من ساعتين.. أثار الأمر اهتمامي في الحقيقة.

شعر بأنه يتربع فوق قمة أعلى سفح على كوكب الأرض، وكل الأمم والشعوب تهلّل له في الأسفل.

إلا أن الفضول ظل يتأجج في صدره لمعرفة تفاصيل الاهتمام الذي أثاره في نفس الهيفاء الماثلة أمامه، فسألها بابتسامة مقتضبة ونظرات متأرجحة وكأنه مجبر على التنازل والسؤال:

ـ أشكرك يا آنسة، وما الذي أثار اهتمامك بالضبط؟ في الحقيقة، أكتب قصصًا ساخرة، وقد كتبت لتوّي أفضلها.

رجاء في دقيقتين

أَحضَروا لإحدى قريباتي مولودها الجديد، بادَرَت بدعوتي لحمله، ففعلت.

درت إلى اليسار دورةً غير مُكتملة لأراقب تعابير وجهه ضمن بقعة خافتة الضوء، ولكي أختفي عن العيان بعض الشيء أيضًا.

ابتسمت ظاهرًا؛ بطبيعة الحال يجب أن ابتسم، سيكون من الغريب أن أعبس، أو أن لا يحمل وجهي أي تعابير محببة وبين يديّ رضيع ببراءته وجماله. ولكن بداخلي كنت أكشف له عن وجه مُختلف تمامًا، وجه يشي بحزم أشد، وبجدية تمنيت لو يستطيع استشعارها بحكم اللحظة.. فهذه اللحظة بالذات تحتاج لأكبر كم من الجديّة..

ليست هينةً البتة، هي لحظات استقباله في الحياة الخارجية وبداية انخراطه بالمجتمع المحيط مهما كان ضيقًا.

كان حديثي له تخاطرًا بما تمنيت أن يعي:

- بعد قليل يا عزيزي سيكون لك كل ما لم تختر.. اسم شخصي يلازمك، عائلة (عشيرة) ممتدة الأصول حتى الجد البعيد الذي يعول عليك في قبره أن تتسلم الشعلة وتحافظ على مسار العائلة الفخري.. شهادة ميلاد رسمية بتفاصيل لا تقبل الجدال والنفي..

هوية وطنية لا يصح تحت أي ظرف أن تنبذها، وميول مُنتظرة، ديانة، إخوة وأخوات دون غيرهم من أبناء هذا العالم.

ستكبر وأنت ملقّن تمامًا كيف تبرع بالتمسّك بكل ما سبق، وكيف تفديه بروحك شئت أم أبيت.

قد تكون التلقائيات هذه بعد أشواط من عمرك مقنعةً وقد لا تكون، قد يكون لها أثر إيجابي في حياتك وقد يكون سلبيًّا، وقد لا تؤثر على الإطلاق.

ربما ستُجبر يومًا ما على قطع آلاف الأميال مقهورًا لمجرد أنك تحمل جنسية وطن بعينه، قد تصبح مكروهًا وملاحقًا لانتمائك لعقيدة دينية ما، أو لعدم انتمائك لها.

قد يكون اسمك مستفزًا ومدعاةً للسخرية في أقاليم أخرى تحمل لهجات أو لغات مغايرة، قد تضطر للتضحية أكثر من اللازم في سبيل انتشال شقيقك من ضياعه الذي لم تتسبّب به. قد تتخبط كثيرًا، ما يجعلك فريسة أفواه ترجم بالكلمات. قد تقضي عمرك كاملًا محاولًا إخفاء أهوائك الحقيقية تفاديًا لشروحات لن تُفهم لدرجة أنك قد توفر على ذاتك عناء المحاولة حتى.

تحمل سلبيتي فأنا أصارحك بما لم يُقل لك حتى الآن، ولن يقال لك شخصيًا على الأغلب إلّا الآن.. أشياء كثيرة سواء جُبلت وتربيت عليها أو جئت بها إلى الحياة دون أدنى اختيار قد تشكل لك عقبةً فارقةً يومًا ما، فكر بها منذ صغرك، ولا تستمع لمن يُفرط في تلقينك محاسنها فقط،

وينفي السيئ المحتمل من حقول التفكير إلى أن يحدث ما لم يكن بحسبانك، بل كن أكثر يقظةً وفطنةً منه وضَع كل شيء في حسبانك يا صغيري، لعلك تكشف بعدها مكان قناعاتك هذه في نفسك، وأيها أنت «فعليًّا» على استعداد لفدائه بالنفس.. فالنظريات المُعلّقة تكون كفيلة أحيانا بسحب المبدأ الواحد من خانة القناعات الحقيقية وإدراجه تحت خانات أخرى قد تفرّخ بداخلك من حيث لا تدري شقاقًا ذاتيًّا وغشاوة، أو قد تتركه ببساطة مهمَلًا مع بقيّة الشكليات عديمة القيمة.

ادرس كلًّا منها، ميّز مصداقيتك وجديتك نحوها من عدمهما، لا تخف أن تتمرد ولو سرًّا على ما لم يأخذ بُعدًا عميقًا صادقًا ومُتجذرًا في رغبتك وميلك الأقوى.

ستلعب كل من عمليات الإدراك المتتابعة، والاكتساب المعرفي دورًا كبيرًا في تشبّثك بما سبق، أو تخلّيك عنه، هذا أمر جيّد بحد ذاته لمجرد أنه نابع منك أنت، وبناءً على رغبتك الخالصة.

لن يضرك أن تتخلى عن أشياءَ ثم تعود لتتمسّك بها، أو العكس مرارًا وتكرارًا وإن رأوا فيك توهانًا وتأرجحًا، المهم أن لا تتبنى موقف المنسحب من إعمال قناعاته، ولا تترك الأشياء تأخذ مأخذ اليَنْبَغِيّة بك أكثر من اتخاذك مأخذ الباحث فيها..

لا تقف على الأشياء وقفة الراضخ، كن مع أو كن ضد، أو لا تكن أساسا، لكن إياك يا صغيري أن تكون لمجرد تلقائيّة الكينونة وميراثها المسلم به بحسب منطق الغير.

مجددًا..

تخيل.. حتى كلماتي هذه بإمكانك أن لا تُسلّم بها، ففي النهاية قد حملتك بين ذراعي دون رغبة منك، وأسهبت في حديثي دون رغبة منك أيضًا.. ولك وحدك حق رفضه أو قبوله، إلا أني آثرت الحديث الآن بالذات لأني أريد أن أكلم من يحفظ السر، وليكون لكلامي قيمة أكبر فمرحلتك العمرية هذه صعبة جدًّا، قد نفعل لك أشياء كثيرة دون رغبة منك ولا نعرف.. يصعب أن نعرف..

أنت وحدك من سيعرف، كما أتمنى أن تظل العارف برغباته وأضدادها.

أما عن صراخك هذا فأستخلِص منه أمرًا يقينيًّا واحدًا: أن أعيدك حالًا إلى حضن أمك الآمن بناءً على رغبة لا شك فيها منك! رجاءً يا صغيري احفظ ما قلت.. رجاءً.

رجاء! أنبهك للمرة الأخيرة! غطِّ وجهك، سيدخل الطبيب..

قراءة في «الماتريوشكا»

يوسف ضمرة

هذه هي المجموعة القصصية الأولى للكاتبة سوار الصبيحي، حتى إنني لم أقرأ لها من قبل قصة واحدة في صحيفة أو مجلة. والماتريوشكا دمية روسية ما إن تفتحها حتى تجد لعبة تشبهها أصغر حجمًا، وهكذا!

تلجأ سوار الصبيحي إلى كل ما يلزمها لتبني لنا عالمًا سريًّا أو غامضًا أو مكشوفًا لكثيرين منا، لكننا لا ننتبه إليه في مشوارنا الحياتي، أو نداريه أو نغطيه خوفًا على أنفسنا من المعرفة. كل ما تقوم به سوار الصبيحي هو الكشف عن هذا الغامض والسري والمكشوف، وهو ما يعني تعريتنا أو مواجهتنا بمرآة ترينا أعماقنا، لا ملامحنا الخارجية وحسب.

تختار الكاتبة نماذجها التي نعرفها ونلتقيها ونمر بها ونصادفها دائمًا في حياتنا، لكننا لا نعرف ما يدور في أعماقها وفي مشوارها؛ بل يمكن القول بثقة عالية: إن هذه الشخوص ذاتها لا تعرف حقيقة ما يدور في أعماقها من أسئلة ورضا وطموح وأمل ووحشة وخوف وغير ذلك. نحن أمام شخوص نكاد نعرفها لأنها قريبة جدًّا منا، بل نشعر بها تتحرك في دواخلنا كما لو أنها جزء منا.

هذه التجربة التي تنقلها لنا الكاتبة من خلال صورة فنية مكثفة هي التي تضعنا مباشرة أمام أنفسنا، ونبدأ في أثناء القراءة بطرح الأسئلة التي تتداعى

بلا توقف: عمن تتحدث الكاتبة في هذه القصص؟ من هؤلاء الناس؟ هل ثمة مشكلات وقضايا وأفكار كهذه موجودة خارجنا من دون أن نعرف؟ وهل كنا كذلك طوال مشوارنا عبر السنين من دون أن ننتبه؟ هل سرقتنا الحياة من وجودنا إلى هذا الحد، كما يحدث مع الموظف في قصة «المنبه»؟ هل كانت خياراتنا ملتبسة كما في قصة «إشارات منتظرة»؟ هل تتوزع رغباتنا وأفكارنا، وتتشتت بحيث يكون أحدنا مشكَّلًا من ذوات عدة من دون أن يدرك، كما في قصة «الماتريوشكا»؟

تحيلنا هذه القصص إلى الدوافع التي تقف خلف الكتابة نفسها، ونعود إلى السؤال الأبدي: «لماذا نكتب»؟ هل حقًّا نُعبّر عن قضايا عامة، أم نحن نبوح ببعض ما نتلمسه أحيانًا في أعماقنا من قلق وأسئلة تنبثق عند كل منعطف في الحياة؟ هل كان فلوبير يعبّر عن قضية عامة عبر شخصية إيما بوفاري وهي تركل حياة مستقرة وتركض خلف حياة صاخبة ومغايرة؟ أليست المرأة هنا في قصة «إشارات منتظرة» صورة من صور إيما بوفاري، حتى لو لم تفعل ما فعلته إيما نفسه؟ إنها تحمل في داخلها ذلك الرفض نفسه لاستقرار يبدو أليفًا وربما يشكل طموحًا قبل الوصول إليه، لكنها تنفجر في لحظة عشوائية ربما، لكي تعبر لزوجها عما في داخلها تجاهه وتجاه هذه الحياة التي تعيشها. إنها تنتقد بقسوة خيارها الأول القائم بالموافقة على الزواج من هذا الرجل، ثم توغل في الكشف عما أخفته في أعماقها من رفض لكل ما يقترن به. ألم تقل آنا مثل هذا الكلام لزوجها أليكسي كارينين حين علم بارتباطها حبًّا برجل آخر؟ ما الذي سيحصل عليه الموظف المتفاني في وظيفته حد الإفراط ونسيان كل ما عداها؟ ألم

يصل المحترم عند نجيب محفوظ إلى مقعد مدير المؤسسة بعد أن نسي حياته بكل تفاصيلها؟ بلى، فقد حصل على الترقية وهو يستلقي على فراش الموت!

حدث عابر

تحتاج الكاتبة هنا إلى حدث عابر أو واقعة عادية مما نمرّ بها كل يوم، لكي تشكل هذه الواقعة قطرة الماء الأخيرة التي تجعل الكأس تفيض. هكذا تتمكن من استخدام مفردات الحياة اليومية التي لا تشكل في حد ذاتها أمرًا لافتًا. فما اللافت في قراءة الجارة لفنجان قهوة امرأة؟ إنه حدث يجري كل يوم وفي كل مكان ومع شخوص حقيقيين، لكن الكاتبة تتمكن من استخدامه صاعقًا لتفجير أعماق شخص يعيش حياته كابتًا مشاعره الحقيقية بلا سبب سوى مجاراة المجتمع وعاداته وتقاليده.

وبمقدار ما نفاجأ بالتفاصيل العادية التي تتمكن الكاتبة من تنسيقها واستخدامها، فإننا لا نستطيع تهميش التقنية الفنية التي تجيد توظيفها، ولعل أبرز ما تعتمده الكاتبة هنا المفارقة التي يتحدث عنها الكثيرون. إنها السمة الأبرز في هذه القصص؛ فبينما تلجأ قارئة الفنجان للاعتراف للمرأة أن الفنجان لم يكن فنجانها، ونتوقع نحن منحنى آخر للوقائع والأفكار بالنسبة للمرأة التي تبدو كأنها انزلقت في مصارحتها للزوج بمكنونات نفسها، فإننا على العكس تمامًا (وهي مفارقة ثانية) نكتشف أن المرأة كانت تعرف أن الفنجان ليس لها. إنها ضربة معلم إن جاز التعبير، إذ تشكل قراءة الفنجان «الخطأ» مبررًا وهميًّا للمرأة ليس إلا.

إن عزيزة لا تفعل شيئًا حين تأتي إلى البلدة كل يوم سبت؛ إنها فقط تقرأ الكف للنسوة وتمنحهن الأمل في تغيير المستقبل الذي يبدو لهن راكدًا ومعروفًا تمامًا قبل عزيزة.. إنه مستقبل قائم على بنية الحاضر الذي يعشنه بكل ما فيه من روتين وسطوة ذكورية، وكدر يومي في العائلات وبين الأزواج. كل ما يغير مشاعر النسوة هو هذا الأمل الذي تمثله عزيزة، لا بقراءتها الكف فقط، وإنما بشكلها ولباسها وأصباغ وجهها كغجرية نمطية. وهو ما يهدئ الرجال أنفسهم كذلك، وخصوصًا حين يعيشون هدوءًا مميزًا في هذا اليوم. لذلك فإن اختفاءها يشكل صدمة للجميع في البلدة؛ لقد اختفى الأمل واختفت الفرحة التي يثيرها رنين الأساور والأقراط وبريق الأصباغ.

وبالعودة إلى المفارقة، فإننا نلمح هنا مفارقة في عنان القصة الذي هو «خطوة عزيزة»، وهي جملة معروفة في اللهجة المصرية تنطوي على ترحيب بالقادم، وهو ما ينطبق على القصة هنا. كما أن العنوان يمكن أن يُقرأ هكذا «خطوة -البنت- عزيزة». هل تعود البلدة مثلما كانت؟ نشعر أن المرارة تكبر، ونتلمس بعض المخاوف عند الرجال. هل أدركوا أن عزيزة عرفت بعض أسرارهم كما حدث مع أهل بلدة يوسف إدريس في قصته «الشيخ شيخة»؟

خطوط حياتنا

ما الذي تريه لنا هذه المرايا؟ قراءة الكف وفنجان القهوة؟ إنها خطوط حياتنا التي نعيشها ولا ننتبه لتفاصيلها . إنها أفكارنا التي كلما

أطلت برأسها في يومياتنا نقوم بطمسها بأي فعل نمطي لكي نستمر في حيواتنا من دون تلك الزوابع التي قد تثيرها الأجوبة . أحيانًا نخفي وأحيانًا نقمع تلك الأفكار . وأحيانًا تخدعنا الملامح الخارجية فنتخذ قراراتنا بناءً على هذا الخداع . لقد ظلت الأخت الكبرى تواظب على مراقبة الجار واهتمامه بنبتة دون غيرها في باحة منزله كما هي الحال في قصة «في الظل». وقد يصح أن نتساءل في النهاية عن ماهية من هم في الظل؛ هل هم في الظل حقًّا كما نظن ونعتقد، أم أن المظهر الخارجي كان مخاتلًا فخدعنا؟ هل الأخت الكبرى في الظل طالما كان اهتمام الأم منصبًّا على الأخت الصغرى؟ لقد اكتشفَت أن اهتمام الجار بالنبتة التي ظنتها أثيرة لديه، يعود لحاجتها إلى رعايته أكثر من سواها من نباتاته، وبخاصة تلك الكبيرة والعتيقة التي لا تحتاج إلى كل هذه العناية؛ لأنها كبرت وضربت جذورها في الأرض عميقًا ولم تعد بحاجة إلى رعايته كتلك النبتة الجديدة التي تتعبه وتأخذ كثيرًا من وقته للحفاظ عليها .

ثمة كثير من الأفكار التي تبرز بعد قراءة هذه القصص، لكن ما هو أكثر أهمية من ذلك هو قدرة الكاتبة على تطويع الوقائع العادية لتصوغ منها بنية فنية حية، قادرة على إثارتنا ولفت انتباهنا لما هو تحت القشرة الخارجية لنمط الحياة اليومية التي نحياها، ونخشى على أنفسنا من منعطفات حادة قد تكون زلقة أو تودي بنا إلى مسارات مغايرة نحتاج وقتًا طويلًا للتأقلم معها، وإقناع أنفسنا والآخرين بها .

فهرس المحتويات

قصص تتجاوز «البدايات الأولى» / إلياس فركوح 7

خطوة عزيزة 11
المُنبّه 15
المذنب 18
قهوة بالسكّر 23
سندريلا 31
لو أن 43
تقدير 53
دعاء خاص 61
بطولة 64
لحظة مجد 74
وقفة قد تطول 77
خلاص 83
المريض 86
الماتريوشكا 96
إشارات مُنتظَرة 102

ميديا ثيرابي 111
في الظل 115
واحد من النخبة 121
رجاء في دقيقتين 125

قراءة في «الماتريوشكا» / يوسف ضمرة 129